عَتَبَاتُ النَّصِّ وَأَثَرُهَا
فِي التَّحلِيلِ البَلَاغِيِّ
(خُطبَةُ تَحرِيرِ بَيْتِ المَقْدِسِ لِابنِ الزَّكِيِّ (٥٩٨) نمُوذَجًا)

إعداد

د/ شهيدة مسعد مرعي

مدرس البلاغة والنقد كلية الدارسات الإسلامية

والعربية بنات القاهرة جامعة الأزهر

عَتَبَاتُ النَّصّ وَأَثَرُهَا فِي التَّحلِيلِ البَلَاغِيّ
(خُطبَةُ تَحرِيرِ بَيْتِ المَقْدِسِ لِابنِ الزَّكِيّ (٥٩٨) نموذجا)

شهيدة مسعد علي مرعي
كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات القاهرة جامعة الأزهر
إيميل shahedahm480@gmail.com

الملخص :
إنَّ الكَاتبَ أو المُؤلِّفَ لِنصّ مِن النُّصوصِ بِاختلافِ نَوعِ النَّص (خُطبةً – مَقالًا – قَصيدةً – قِصَّةً – رِوايةً)، وَهو يكتبُ كلماتِهِ وَيبنِي عَوالمَ نصّهِ يُراعِي أُمورًا عدَّةً لنظمِ هَذا النّصّ وَإخراجِهِ فِي صُورتِهِ النَّهائيَّةِ، وَكَمَا تُؤثِّرُ فِي النَّصِ نفسِهِ مُؤثراتٌ مُتعدِّدةٌ مِن بَينَها (الحَدثُ – الزَّمانُ – المَكَانُ – المُؤلِّفُ – العُنوانُ – المُقَدِّمَةُ – الشَّخصِيَّات دَاخِلَ النَّصّ – الخَاتِمَةُ – السّياقُ الدَّاخِليُّ والخَارجيُّ للنَّصّ) فَإنَّ ثمَّةَ فِي كلّ تلكَ الأشياءِ مَا يَلفتُ المُتلقِي ويحدو بِهِ إلَى المُشارَكةِ الفَاعلةِ فِي تَفسيرِ مَآتِي النَّصّ وَبلوغِ المنشودِ مِن دلالاتِهِ؛ ذلك أنَّ كلَّ مَا أشرتُ إليهِ يُمثِّلُ عتبةً مِن عَتباتِ النصّ المُوصِلَةِ إلَى دَلالتِهِ وَتَحليلِ مَغزاهُ.
انطلاقًا مِن أنّ العَتباتِ النصيَةَ مُمثِّلًا لِمُكوّناتِهِ الأصيلَةِ فِي بِنَائِهِ، وُمبرزًا لِخصوصيَّتِهِ وَتميزه عَن غيرِهِ مِن الأجناسِ الأدبيَّةِ التَّي لَا تَشتركُ معَهُ إلَا فِي بَعضِ مقوّماتِ الصّياغةِ، ولِمَا لِتلكَ العتباتِ مِن دَورٍ بَارزٍ فِي فَهمِ خُصوصِيَّةِ النصّ الأدبيّ، وَفَكّ ألغازِهِ، وتَحديدِ مَقاصدِهِ الدّلالِيَّةِ، وَتفسِيرِهِ، وَإضاءةِ جَوانبِهِ الغامضةِ، وَمِن هُنا جَاءت مُشكِلَةُ البحثِ الَّذي عنونتُه بِـ "عتَباتِ النَّصّ، وأَثرِهَا فِي التَّحلِيلِ البَلَاغيّ لِخُطبَةِ تَحرِيرِ بَيتِ المَقدسِ لابنِ الزَّكيّ".

و اَنتظَمَتْ خطة البحث في مُقدِّمة، وَمَبحَثين، وَخاتِمَة، جعلتُ المُقدِّمةَ فِيهِ تَبيانًا لِأهميةِ الموضوعِ وحدًّا لِإشكالِيَّتِه، ونَوعِ المَنهجِ الموظَّفِ في اَستِكناهِ ذلكَ كُلِّه، وَالمَبحثَ الأوَّلَ والمُعنونَ بِـ(العَتَبَاتِ النَصيَّةِ فِي خُطبَةِ ابنِ الزَّكيّ) كَاشفًا عَن مُعَمَّماتِ البَحثِ وَمفاهِيمِه العامَّةِ بِطريقةٍ ابتِكاريَّةٍ، عَلى تِلكَ الصُّورةِ:

- التعريف بعتبات النص.
- التعريف بقائل الخطبة (ابن الزكيّ).
- السياق الداخلي للخطبة.
- السياق الخارجي للخطبة.
- الحدث.
- الزمان.
- المكان.
- المقدمة.
- الخاتمة.
- الشخصيات في النص (الخطبة).

وَالمَبحَثُ الثَّانِي، والموضوعُ تحَت عُنوانِ: خُطبَةِ ابنِ الزَّكيّ فِي تَحرِيرِ بَيتِ المَقدِسِ فِي ضَوءِ التَّحلِيلِ البَلَاغِيّ.

وخاتمة بها أهم نتائج البحث

الكَلِمَاتُ المِفتاحِيَّةُ: العَتباتُ، النَصيَّةُ، الاتِّساقُ، الإحالَةُ، النَّسَقُ السِّياقُ، البَلاغِيَّة.

Text thresholds and their impact on rhetorical analysis

(Sermon on the Liberation of Jerusalem by Ibn Al-Zaki (598) as an example)

Shahida Mossad Ali Marey

Faculty of Islamic and Arabic Studies, Cairo, Al-Azhar University

Abstract:

It is the writer or author of a text that differs from the type of text. (Sermon - Article - Poem - Story - Narrative), and she writes her words, and builds her text that takes into account a number of things to organize this text and bring it out in its final image, and as much effect as it does. (Event - Time - Place - Author - Title - Introduction - Personalities Entered Text - Conclusion - Internal and External Context of Text) Then, in all these things, the receiver is interested in actively participating in the interpretation of my textual meanings and the attainment of the purpose of the semantics.

From the point of view that the text thresholds are representative of its authentic components in its construction, a highlight of its specificity and its denomination from other literary objects with which it does not share some of the values of the past. "Text thresholds and their impact on rhetorical analysis of the Sermon on the Liberation of Jerusalem by Ibn Al-Zaki"

And I organized the search plan in a prelude, and two searches, and a conclusion, I made the introduction in it a statement of the importance of the topic, the kind of

approach employed in the research and the kind of approach we are working in.

That picture:

•Definition of text thresholds.

•Introducing the speaker of the sermon (Ibn Al-Zaki).

•the internal context of the sermon.

•the external context of the sermon.

•the event

•Time.

•Place.

•Introduction.

•Conclusion.

•Characters in the text (sermon).

The second topic, titled: Ibn al-Zaki's sermon on the liberation of Jerusalem in the light of rhetorical analysis.

And a conclusion with the most important research results

key words: thresholds, textuality, coherence, referencing, contextual arrangement, rhetoric.

المُقَدِّمَةُ

إنَّ الكَاتبَ أو المُؤلِّفَ لِنصٍّ مِن النُّصوصِ بِاختلافِ نَوعِ النَّص (خُطبةً – مَقالًا – قَصيدةً – قِصَّةً – رِوايةً)، وَهو يكتبُ كلماتِهِ وَيبنِي عَوالمَ نصِّهِ يُراعِي أُمورًا عدَّةً لنظمِ هَذا النّصِّ وَإخراجِهِ فِي صُورتِهِ النَّهائيَّةِ، وَكَمَا تُؤثِّرُ فِي النَّصِ نفسِهِ مُؤثراتٌ مُتعدِّدةٌ مِن بَينَها (الحَدثُ – الزَّمانُ – المَكَانُ – المُؤلِّفُ – العُنوانُ – المُقَدِّمَةُ – الشَّخصِيَّات دَاخِلَ النَّصِّ – الخَاتِمَةُ – السّياقُ الدَّاخِليُّ والخَارجيُّ للنَّصِّ) فَإنَّ ثمَّةَ فِي كلّ تلكَ الأشياءِ مَا يَلفتُ المُتلقِي ويحدو بِهِ إلَى المُشارَكةِ الفَاعلةِ فِي تَفسيرِ مَآتِي النَّصِّ وَبلوغِ المنشودِ مِن دلالاتها ذلك أنَّ كلَّ مَا أشرتُ إليهِ يُمثِّلُ عتبةً مِن عَتباتِ النصِّ المُوصِلَةِ إلَى دَلالتِهِ وَتَحليلِ مَغزاهُ.

انطلاقًا مِن أنّ العَتباتِ النصيَةَ مُمثِّلًا لِمُكوّناتِهِ الأصيلَةِ فِي بِنَائِهِ، وُمبرزًا لِخصوصيَّتِهِ وتميزه عَن غيرِهِ مِن الأجناسِ الأدبيَّةِ التَّي لَا تَشتركُ معَهُ إلَا فِي بَعضِ مقومات الصّياغةِ، ولِمَا لِتلكَ العتبات مِن دَورٍ بَارزٍ فِي فَهمِ خُصوصِيَّةِ النصِّ الأدبيِّ، وَفَكِّ ألغازِهِ، وتَحديدِ مَقاصدِهِ الدّلاليَّةِ، وَتفسِيرِهِ، وَإضاءةِ جَوانبِهِ الغامضةِ، وَمِن هُنا جَاءت مُشكِلَةُ البحثِ الَّذي عنونتُه بـِ "عتَباتِ النَّصِّ، وأَثرِهَا فِي التَّحليلِ البَلَاغيِّ لِخُطبَةِ تَحريرِ بَيتِ المَقدسِ لابنِ الزَّكيِّ".

ذلكَ، مِن حيثُ كَانَ لِلعُنصرِ التأثيريِّ النَاتجِ عَن تلكَ العَتباتِ أَوْقَعُ البيانِ عَن متضمّناتِ النَّصِّ مِن دلالاتٍ أسهمَ فِي تَشكِيلِهَا، تَوالِيهَا عَلَيهِ وَخضُوعُهُ لَهَا بِصفةٍ عَامَّةٍ، كَما أنَ لِتمثُّلاتِ تلكَ العَتباتِ فِي الجانبِ البلاغيِّ تَأثيرًا ظاهِرًا بِصورَةٍ خَاصَّةٍ، ومِن ثَمَّةَ أتبعتُ هذا الدّرسَ التَحليليَّ بِمَبحثٍ مُنفردٍ للحَدِيثِ عَن أثَرِ العَتباتِ النَّصيَّةِ فِي التَّصويرِ البلَاغيِّ عَلَى

نَحوِ مَا تَقتضِي بِهِ خطَّةُ البَحثِ الَّتي انتظَمَتْ مُقدِّمةً، وَمَبحَثين، وَخاتِمَةً، جعلتُ المُقدِّمةَ فِيهِ تَبيانًا لِأهميةِ الموضوعِ وحدًّا لِإشكالِيَّتِه، ونَوعِ المَنهجِ الموظَّفِ في استِكناهِ ذلكَ كُلِّه، وَالمَبحثَ الأوَّلَ والمُعنونَ بِـ(**العَتَبَاتِ النَصيَّةِ فِي خُطبَةِ ابنِ الزَّكيّ**) كَاشفًا عَن مُعَمَّماتِ البَحثِ وَمفاهِيمِه العامَّةِ بِطريقةٍ ابتِكاريَّةٍ، عَلى تِلكَ الصُّورةِ:

- **التعريف بعتبات النص.**
- **التعريف بقائل الخطبة (ابن الزكيّ).**
- **السياق الداخلي للخطبة.**
- **السياق الخارجي للخطبة.**
- **الحدث**
- **الزمان.**
- **المكان.**
- **المقدمة.**
- **الخاتمة.**
- **الشخصيات في النص (الخطبة).**

وَالمَبحَثُ الثَّانِي، والموضوعُ تحَت عُنوانِ: خُطبَةِ ابنِ الزَّكيّ فِي تَحرِيرِ بَيتِ المَقدِسِ فِي ضَوءِ التَّحلِيلِ البَلَاغِيّ.

(المبحثُ الأوّلُ) العتباتُ النصيَّةُ في خطبةِ القاضِي ابنِ الزَّكيّ

- **ماهِيةُ العَتباتِ النصيَّةِ**

فِيمَا ينضوِي تَحَت نظريّةِ العتباتِ النصيَّةِ مِن التمثَّلاتِ الإجرائيَّةِ المُبرِزةِ لِمُنعكساتِ المُنجَزِ السَّرديّ، وتوجُهاتِه المُنعكسَةِ مِن تعالقِ هذا النصّ مَعَ نصوصٍ أُخرَى استَرفدَ مِنها بَعضَ مادَّتِهِ فِي الشَّكلِ أو الجَوهرِ، مَا يُشكِّلُ الدّافعيّةَ لاختيارِ هذا المنهجِ تحديدًا.

وَذلك انطلاقًا مِمَّا لِنظريةِ العتباتِ النصيَّةِ مِن دَورٍ بَارزٍ فِي إعادَةِ قراءَةِ النصّ السَّرديّ ومنحِنَا قُدرةً خلَّاقةً فِي إنتاجِ دلالتِهِ بِشكلٍ غيرِ مسبوقٍ، يتناسبُ معَ مُحتواهُ ومُرتكزاتِ بِنائِهِ الدَّاخِليَّةِ، وَتُبرِزُ مدَى مَا حقَّقَهُ انفِتاحُهُ عَلَى النُّصوصِ الَّتي أفادَ مِنهَا، تلك النُّصوصُ الَّتي تدخلُ – عِندَ المُوازَنةِ – فِي حيز التوازي مَعَهُ مِن خِلالِ انفتاحِهِ عَلَيهَا وَنهلِهِ مِنهَا.

هذا بالنَّظَرِ إلَى أنَّ أيًّا مِن النصوصِ الإبداعيَّةِ عبارةٌ عَن " نتاجٍ مُتمازجٍ مِن عِدَّةِ تجارِبٍ داخليَّةٍ ذاتيَّةٍ، مُنفَتحٍ عَلَى أُخرَى خَارجيَّةٍ شكَّلَتْ معًا بِناءَهُ الفنيَّ، لِيُعبّرَ في نِهايةِ المطافِ عَن تجرِبَةِ الشَاعرِ الخاصَّةِ المُنبثقةِ مِن نشَاطِهِ الفرديّ وَنشاطاتٍ أُخرَى سَبقتْهُ، فجَلَّتْ عَمَّا تضمَّنَهُ عُنوانُهُ مِن دلالاتٍ وثيقةِ الاتِّصالِ بِبقيَّةِ العناوينِ الفرعيَةِ المُنضويةِ تَحتَهُ ([1])"، ومِن ثَمَّ

([1]) ينظر، بتصرفٍ في نص المؤلف: عتبات، جيرار جينت، تر/ عبد الحق بلعابد، ص٤٧، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠٠٨

بموضوعِهِ؛ لإظهارِ مدَى ارتِباطِ تلكَ العنوانَاتِ بِبَعضِهَا وَبِمَضمونِ النَّصِّ العامِّ، بإخضاعِ النصِّ للقراءةِ العميقةِ المُنتجةِ لِمدلولاتِهِ الخافيةِ([1]).

وبِمُلاحَظَةِ تِلكَ الدَّوالِّ وَمَا عَساهَا تُشِيرُ إلَيهِ العَلامَاتُ السيميولوجِيَّةُ[2] الكَامِنَةُ بَينَ أبنِيَةِ وَتراكِيبِ هذا النَّصِّ، نَجِدُ أنَّ الدَّورَ الأكبَرَ فِي فَهمِ وَتحلِيلِ مَقصدِيَّاتِ هذا النَّصِّ يَرجعُ إلَى تَفسيرِ تِلكَ العَلامَاتِ، بَما يَتحدَّدُ عَلَى غِرارِهِ المَدلولُ النَّصيُّ المُنبَثِقُ عَن انفتاحِ النَّاصِّ عَلَى عَوالمِ المُناصَّاتِ الدَّالِيَّةِ، مِن خِلالِ عَددٍ مِن المُتعالِيَاتِ النَّصيَّةِ([3]) المُسهِمَةِ فِي تَحوُّلِ الدَّلالَةِ وَالرَّبطِ بَينَ أبنيةِ النصِّ وبعضِهَا.

ذلكَ أنَّ القارئَ يستعِينُ عَلى فهمِ مدلولِ النصِّ وَغايتِهِ بِواسطةِ تلكَ العَتباتِ فِي مَظاهرِهَا السياقيةِ والنسقيَّةِ المقاميَّةِ عَلَى مَا سَيظهرُ لنَا لَدَى تَحلِيلِنَا لِنصِّ خُطبةِ القاضِي ابنِ الزّكيّ، فَإنَّ لتلك العتباتِ من التأثيرِ مَا ينعكسُ بِدَورِهِ عَلى كلٍّ مِن النَّاصِّ وَالقَارئِ مَعًا، باتِّخاذِ كلٍ مِنهما هذه العتباتِ سَبيلًا للتَّحلِيقِ فِي فَضَاءَاتِهِ الدَّاخِليَّةِ وَالتَّأطِيرِ لَهَا بوشيجَةٍ مَا تَسعَى إلَى مَزجِ النصوصِ الداخليةِ والجملِ المتلاحمةِ وانصهارِ بعضِها معَ بعضٍ

---

[1]) عتبات النص في التراث العربي، والخطاب النقدي المعاصر، د. يوسف الإدريسي، ص٤٣، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٥

[2]) الدرس السيميولجي، أخد فروع علم النصّ في الدرس اللسانيّ الحديثِ، وهو يُعنَى بدراسةِ الارتباطاتِ العلاماتية والإشارت اللغوية المتوافق عليها في مجتمعِها اللغويّ بين كلٍّ من المرسلِ والمستقبل، وينظر لذلك: سيميولوجيا التواصل، وسيميولوجيا الدلالة، جميل الحمداوي، مجلة منبر حر للثقافة والفكر والأدب الإلكترونية، ٢٠٠٧

[3]) المتعاليات النصية في الشعر العباسي (البحتري والمتنبي)، وهيبة بهلول، منشورات جامعة العربي بن مهيدي، الجزائر، ص٢٥ – ٣٣، ط١، ٢٠١٨

في بَوتقةٍ واحدةٍ تَعِينُ علَى اتّساقِهَا وتَراكُبِهَا والتَأطيرِ لَهَا بِوحدةٍ لغويَّةٍ أو مَقاميَّةٍ واحدةٍ، بِحيثُ لَا يَكونُ كلٌّ جزءٍ مِنها بَمنأًى عَن بقيَّةِ الأجزاءِ([1]).

وَفِي قَراءَةٍ سسيولوجيةٍ لِنصّ خُطبةِ القاضِي الأديبِ ابنِ الزَّكيّ، نَقِفُ عَلَى كمٍّ مُتلاحقٍ مِن العلامَاتِ والدَّوالّ المُسترفَدَةِ مِن عِدَّةِ مَرجِعيَّاتٍ نَصيَّةٍ جَعَلَتْ مِن النّصّ مَادَّةً ثَريَّةً مُنبثقةً عَن كَمٍّ هائلٍ مِن الروافدِ الخارجِيَّةِ، وَمِن هَنا لَاحَ لِي العَمَلُ عَلَى قراءَةِ هذهِ الخُطبةِ وَإفرادِهَا بالبَحثِ والدِّراسَةِ مِن خِلالِ المَنهجِ البنيويّ وَنظريَّةِ الانفتاحِ النصيّ.

[1]) الاتساق النصي في التراث العربي، نعيممة سعدية، ص٢٦٧، مجلة كلية الآداب، والعلوم الإنسانية والاجتماعية،، عد/ ٥، ٢٠٠٩

- **التَّعريفُ بالقَاضِي محي الدِّين ابنِ الزَّكيّ**

هوَ قاضي قُضاةِ دِمشقَ، محي الدين أبو المعالي محمد بنُ القاضي عليّ بنُ محمدٍ ابنِ يحيى بنِ الزَّكيّ القُرَشيُّ الدِّمشقيُّ الشَّافعيُّ (١)، كانَ مِن حاشيةِ الملك صلاح الدينِ الأيوبيّ المقرّبين، ولهُ فيهِ شعرٌ ذكرَهُ صاحبُ وفيَّاتُ الأعيانِ، ومنهُ قَولُه:

وَفَتْحُكَ القَلعَةَ الشَّهباءَ فِي صَفَرٍ مُبَشِّرًا بِفُتُوحِ القُدسِ فِي رَجَبِ

وَقد وافقَ مقالُهُ هذا فتحَ بيتِ المَقدسِ فِي شِهرِ رجبٍ بعدَ أربعِ سِنينَ مِن هذِه المنظومةِ التي امتدحَ فيهَا صلاحَ الدينِ عندَ فتحِهِ لحلَبَ سنَةَ ٥٧٩ للهجرةِ المبارَكةِ.

ولِيَ قضاءَ دمشقَ بأمرٍ مِن صلاحِ الدِّينِ الأيوبيّ؛ لَا لقُربِهِ منهُ وحسبُ، بَل لأنّهُ كانَ عالمًا بارعًا مُتفنّنًا في المَقالِ والنَّظمِ والخطابةِ وعارفًا بِأحوالِ الناسِ وبالفقهِ والأُصولِ (٢).

وقد عرَّف لهُ ابنُ خَلّكانٍ في وفيَّاتِ الأعيانِ بقولِهِ: " أبو المعالي محمدٌ بنُ أبي الحسنِ عليُّ بنُ محمَّدٍ أبي المعالي مجدِ الدِّين بنِ يحيى أبي الفضل زكي الدين بنِ عليّ بنِ عبدِ العزيزِ بنِ عليّ بنِ الحسينِ بنِ محمَّدٍ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ القاسمِ بنِ الوليدِ بنِ القاسمِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ أبان بنِ أميرِ المؤمنينِ عثمانَ بنِ عفّان (رَضِيَ اللهُ عَنهُ) القرشيّ، المُلَقّب محيي الدّين، المعروف بابنِ زكيّ الدينِ، الدمشقيّ الفقيهِ الشافعيّ، كانَ ذَا فضائلَ عديدةٍ من الفقهِ والأدبِ وغيرهما، ولهُ النظمُ المليحُ والخطبُ والرسائلُ، وتولّى

---

١) سيرُ أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تح/ لجنة تحقيق التراث بالدار، ص٣٥٩-٣٦٠، دار الرسالة للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٤

٢) المرجع السابق، ص٣٥٩

القضاءَ بِدَمشقَ فِي شهرِ ربيعِ الأوَّلِ، سنةَ ثَمانٍ وثَمانين وخمسمائةٍ، يومَ الأربعاءِ، العشرينَ مِن الشَّهر المَذكورِ (١)"

مولدُهُ:

لم يُحدِّد صاحبُ سيرِ أعلامِ النبلاءِ سنةَ مولدِه، غيرَ أنَّهُ أرَّخَ لسنةِ وفاتِهِ، بَنصٍّ سَيأتِي فِي مَوضعِه قريبًا مِن ذلكَ، أمَّا صاحبُ وفيَّاتِ الأعيانِ فقدَ ذكرَ في سَنةِ وَفاتِهِ مَا نصُّهُ: " وَكانت ولادتُهُ سنةَ خمسينَ وخمسمائةٍ بِدِمشقَ(٢)"

وفاتُهُ:

وقد تُوفِّيَ لثمانٍ وَأربعينَ سنةً، فِي شَعبانَ، سنةَ ثمانٍ وتسعينَ وخمسمائةٍ(٣).

والذي نصَّ عليهِ صاحبُ الوفيَّاتِ يؤكّدُ ذلك الذي ذهبَ إليهِ الإمامُ الذّهبي، حيثُ قالَ: " ... وتُوفِّيَ فِي سَابعَ شَعبانَ سنةَ ثَمانٍ وتِسعينَ وَخمسمائةٍ، بِدمشقَ، ودُفِنَ مِن يومِهِ بِسفحِ جَبلِ قاسيون (٤)"

بيَد أنَّ صاحبَ الوفيَّاتِ زادَ يومَ الوفاةِ، ومكانَ الدَّفنِ، علَى سبيلِ التَّحقِيقِ.

---

١)وفيات الأعيان، ابن خلكان، تح/ لجنة تحقيق جـ١٠، حرف الميم، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٩

٢) وفيات الأعيان، ابن خلكان، تح/ لجنة تحقيق جـ١٠، حرف الميم، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٩

٣) سير أعلام النبلاء، ص٣٥٩، مرجع سابق

٤) وفيات الأعيان، جـ١٠، ص ١٣٢، مرجع سابق

- **النَّصُّ المَدروسُ (خُطبَةُ الفَتحِ، لِلقَاضِي ابنِ الزكيّ)**

" الحمدُ للهِ مُعزِّ الإسلامِ بنصرِهِ، ومُذلِّ الشركِ بقهرِهِ، ومصرِّفِ الأمورِ بأمرِهِ، ومُديمِ النّعمِ بِشُكرِهِ، ومُستدرجِ الكفّارِ بمكرِهِ، الّذي قدّر الأيّامَ دُولًا بِعدلِهِ، وجَعلَ العاقبةَ للمُتّقينَ بفضلِهِ، وأفاءَ علَى عِبادِهِ مِن ظِلِّه، وأظهرَ دِينَهُ على الدِّين كُلِّه، القاهرِ فَوقَ عبادِهِ فَلا يُمانَعُ، والظَّاهرُ عَلَى خَليقتِهِ فَلا يُنازَعُ، والآمِرُ بِمَا يَشاءُ فلا يُراجَعُ، والحاكمُ بِمَا يُريد فَلا يُدافَعُ، أحمَدُهُ على إظفاره وإظهَارِهِ وَإعزازِهِ لِأولِيَائِهِ ونَصرِهِ لأنصارِهِ، وتَطهيرِ بيتِهِ المُقدَّسِ مِن أدناسِ الشِّركِ وأوضَارِهِ، حمدَ مَنِ استشعرَ الحمدَ باطنَ سِرِّهِ وظَاهِرَ جِهارِهِ، وأشهدُ أن لّا إلـهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شَريكَ لَهُ الأَحدُ الصّمدُ، الّذي لَم يلِد ولَم يُولَد ولَم يكن لَهُ كُفوًا أحد، شَهادةَ مَن طَهُرَ بِالتَّوحِيدِ قَلبُهُ، وأَرضَى بِهِ ربَّه، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه رافعُ الشَّكِّ، وداحضُ الشِّركِ، ورَاحضُ الإفكِ، الّذي أسرَى بِهِ مِن المَسجدِ الحرامِ إلَى هذَا المَسجدِ الأُقصى، وعرَجَ بِهِ مِنهُ إلى السّمواتِ العُلَا إلَى سِدرَةِ المُنتهَى، عندَها جنةُ المأوَى، مَا زاغَ البَصرُ ومَا طَغَى، صَلَّى الله عليهِ وعلَى خَليفتِهِ أبي بكرٍ الصدِّيقِ السّابقِ إلَى الإيمانِ، وَعلى أميرِ المؤمنين عمرَ بنِ الخطَّابِ أوَّلِ مَن رفعَ عن هذَا البَيتِ شِعارَ الصُّلبانِ، وعلَى أميرِ المُؤمنين عُثمانَ بنِ عفَّانَ ذي النُّورينِ جامعِ القُرآنِ، وعَلَى أميرِ المُؤمنين عليّ بنِ أبِي طالبٍ مُزلزِلِ الشِّركِ ومُكَسِّرِ الأوثَانِ، وَعَلى آلِهِ وصَحبِهِ والتّابعين لَهم بِإحسانٍ.

أيُّها الناسُ، أبشروا برضوانِ اللهِ الذي هو الغايةُ القصوى والدرجةُ العُليا؛ لِمَا يسّرَهُ اللهُ على أيديكم من استردادِ هذهِ الضالّةِ، مِن الأُمَّةِ الضالَّةِ، وردّها إلى مقرّها من الإسلامِ، بعد ابتذالِها في أيدي المُشركين قريبًا من مائةِ عامٍ، وتطهيرِ هذا البيتِ الذي أَذِنَ اللهُ أن يُرفعَ ويُذكرَ فيهِ اسمُه، وإماطةِ الشِّركِ

عن طُرُقِه بعدَ أن امتدَّ عليها رُواقُه واستقرَّ فيها رسمُه، ورفعِ قواعدِهِ بالتّوحيدِ، فإنَّه بَنَى عليهِ وشيَّد بُنيانَه بالتّمجيدِ، فإنَّه أُسِّسَ على التقوى من خلفِهِ ومِن بينِ يَديه، فهو مَوطنُ أبيكم إبراهيمَ، ومِعراجُ نبيّكم محمَّدٍ (عَليهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ)، وقِبلتُكم التي كُنتم تصلّون إليها في ابتداءِ الإسلامِ، وهو مقرُّ الأنبياءِ، ومقصدُ الأولياءِ، ومدفنُ الرسلِ ومهبطُ الوحي، ومَنزِلٌ به ينزلُ الأمرُ والنهي، وهو في أرض المَحشرِ وصعيدِ المنشرِ، وهو في الأرضِ المقدّسةِ التي ذكرَها اللهُ في كتابِهِ المُبينِ، وهو المسجدُ الأقصى الّذي صلّى فِيهِ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بالملائكةِ المُقرَّبين، وهو البلدُ الذي بعثَ اللهُ إليه عبدَهُ ورسولَهُ وكَلِمَتَهُ التي ألقاهَا إلى مريمَ، ورُوحَهُ عيسى الذي كرَّمهُ بِرسالتِه وشرَّفَه بنبوّتِه، ولم يُزحزِحْهُ عن رُتبةِ عبوديَّتِه، فقالَ تعالى: ((لَن يَسْتَنكِفَ المَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا للهِ وَلَا المَلَائِكَةُ المُقَرَّبُونَ)) [النِّساءُ: ١٧٢]، كَذَبَ العادلون باللهِ وضلُّوا ضلالًا بعيدًا، ما اتّخذ اللهُ من ولَدٍ وما كان معَهُ مِن إلهٍ إذًا لذهبَ كلُّ إلَهٍ بِمَا خلَقَ ولَعَلَا بَعضُهم على بعضٍ، سُبحانَ اللهِ عمَّا يصفُونَ: ((لَقَد كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ)) [المائدة: ١٧]، إلَى آخرِ مَا أتَى عَليهِ مِن المَائدَةِ، وهو أوّلُ القِبلَتين، وثَاني المُسجدَين، وثالثُ الحرمينِ، لا تُشدُّ الرِّحالُ بعدَ المَسجِدَينِ إلّا إليهِ، ولَا تُعقَدُ الخناصِرُ بعدَ المَوطِنَينِ إلّا عليهِ، فَلولَا أنَّكم مِمَّن اختارَهُ اللهُ من عبادِهِ، واصطفَاهُ مِن سُكَّانِ بِلادِهِ، لَمَا خصَّكم بِهذهِ الفضيلةِ الَّتي لَا يُجاريكم فِيها مُجارٍ، ولَا يُباريكم في شَرفِها مُبارٍ، فَطُوبَى لكم من جَيشٍ ظَهرت على أيديكمُ المُعجزاتُ النبويَّة، والواقعاتُ البدريَّةُ، والعَزمَاتُ الصِّديقيَّةُ، والفتوحاتُ العُمَرِيَّةُ، والجيوشُ العُثمَانِيَّةُ، والفتكاتُ العَلَويَّةُ، جَدَّدتُم للإسلامِ أيَّامَ القادسيَّةِ، والملاحمَ اليرموكيَّةَ، والمُنازلاتِ الخَيبريَّةَ، والهَجماتِ الخالدِيَّةَ، فَجزاكم اللهُ عَن نبيّهِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم أفضلَ الجزاءِ، وشَكَرَ لكم ما بذلتمُوهُ

من مُهَجِكُم في مُقارعةِ الأعداءِ، وتقبَّل منكم ما تقرّبتُم بهِ إليهِ مِن مهراقِ الدِّماءِ، وأثَابكم الجنَّةَ فَهِيَ دارُ السُّعداءِ، فاقدروا – رَحِمَكُم اللهُ – هذهِ النّعمةَ حقَّ قدرِهَا، وقُوموا للهِ – تَعالَى – بِواجبِ شُكرِها، فَلَهُ تعالَى المِنَّةُ عليكُم؛ بِتَخصِيصِكم بِهذهِ النّعمةِ، وترشيحِكُم لهذِهِ الخِدمَةِ، فهذا هو الفتحُ الذي فُتِحتْ لهُ أبوابُ السَّناءِ، وتبلَّجت بِأنوارِهِ وُجُوهُ الظّلماءِ، وابتهَجَ بهِ الملائكةُ المقرّبون، وقَرَّ بهِ عَينًا الأنبياءُ والمرسلُونَ، فَماذا عليكُم مِن النّعمةِ؛ بِأَن جعَلكم الجيشَ الّذي يُفتَحُ على يدَيهِ البَيتُ المُقَدَّسُ في آخِرِ الزّمانِ، والجندُ الّذين تقومُ بِسيوفِهم بعدَ فَترةٍ من النُّبوَّةِ أعلامُ الإيمانِ، فَيُوشِكُ أن يفتحَ اللهُ على أيديكم أمثالَهُ، وأن تكونَ التَّهانِي لِأهلِ الخضراءِ، أكثرَ من التّهاني لِأهلِ الغَبراءِ، أليسَ هو البَيتُ الذي ذَكَره اللهُ في كتابِهِ؟!، ونصَّ عليهِ فِي مُحكَمِ خِطابِه، فَقَالَ تَعَالَى: ((سُبحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبدِهِ لَيْلًا مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى)) [الإسراءُ: ١] أَليسَ هو البَيتُ الّذي عظّمتهُ المِلَلُ، وأَثنَت عليهِ الرُّسُلُ، وتُلِيَت فيهِ الكُتُبُ الأربعَةُ المُنزَّلةُ مِن اللهِ –عَزّ وَجَلَّ–؟! أليسَ هو البَيتُ الّذي أمسكَ اللهُ – تَعَالَى – لأجلِهِ الشَّمسَ علَى يُوشَعَ أن تَغرُبَ، وبَاعَدَ بينَ خُطواتِهَا لِيَتيسَّرَ فتحُهُ ويَقرُبَ؟! أليسَ هو البَيتُ الّذي أمَرَ اللهُ –عَزَّ وجَلَّ– مُوسَى أن يَأمرَ قومَهُ باستنقاذِهِ، فَلم يُجِبهُ إلّا رَجُلانِ، وَغَضِبَ اللهُ عليهم لِأجلِهِ؛ فألقَاهم فِي التِّيهِ عُقوبَةً للعِصيانِ، فاحمدُوا اللهَ الّذي أمضَى عزَائمَكُم لِمَا نكلَت عنهُ بنُو إسرائيلَ، وَقَد فُضِّلَت على العالمينَ، ووفَّقكُم لِمَا خَذلَ فيهِ أُممًا كانت قَبلَكُم مِن الأُمَمِ المَاضِينَ، وجَمَعَ لأجلِهِ كَلِمَتَكُم وكانت شتَّى، وأغناكم بِمَا أَمضتْهُ (كَان) وَ(قَد) عَن (سَوفَ) و(حتَّى)، فَليَهنَكُم أنّ اللهَ قد ذكرَكُم بهِ فِيمَن عِندَهُ، وجَعلَكُم بعدَ أن كُنتُم جنودًا لأهوِيَتِكُم جُندَه، وشَكَر لكم الملائكةُ المُنزلُون، علَى مَا أهديتُم لِهذَا البيتِ مِن طيّبِ التَّوحيدِ ونَشَرِ التَّقدِيسِ والتَّمجيدِ، ومَا أمطتم عَن طُرقِهم

فيهِ مِن أذَى الشِّركِ والتَّثليثِ، والاعتقادِ الفاجرِ الخَبيثِ، فَالآنَ تَستغفرُ لكم أملاكُ السَّمواتِ، وتُصلِّي عليكم الصَّلواتُ المُباركاتُ، فاحفظُوا – رَحِمَكُم اللهُ – هذِهِ المَوهِبَةَ فِيكم، واحرُسُوا هذِهِ النّعمةَ عِندَكُم، بِتقوَى اللهِ التي مَن تمسَّكَ بِهَا سَلِمَ، ومَن اعتصَمَ بِعُروَتِها نَجَا وعُصِمَ، واحذرُوا مِن اتِّباعِ الهوَى، ومُواقَعَةِ الرَّدَى، ورجوعِ القَهقَرَى، والنُّكولِ عَن العِدَا، وخُذوا في انتهازِ الفُرصةِ، وَإزالةِ مَا بَقِيَ مِن الغُصَّةِ، وجَاهِدُوا في الله حقَّ جهادِهِ، وبِيعُوا عبادَ اللهِ أنفُسَكُم فِي رضاهُ؛ إذْ جعلكم من خيرِ عِبادِه، وإيّاكم أن يستزّلكم الشيطانُ، وأن يتداخلَكُم الطُّغيانُ، فَيُخَيَّلَ لكم أنّ هذا النصرَ بِسُيوفِكم الحِدادِ، وخُيولِكم الجِيادِ، وبِجلادِكم فِي مواطنِ الجِلادِ، لا واللهِ مَا النّصرُ إلّا من عندِ اللهِ، إنّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ، فاحذروا عبادَ اللهِ – بعدَ أن شرّفكم بهذا الفتحِ الجليلِ، والمنحِ الجزيلِ، وخصّكم بنصرِهِ المُبينِ، وأعلَقَ أيديَكم بِحبلِهِ المَتينِ – أن تقترفُوا كبيرًا من مناهيه، وأن تأتوا عظيمًا من معاصِيهِ، فتكونوا كالتي نقضَت غزلَها من بعدِ قُوَّةٍ أنكاثًا، وكالذي آتينَاهُ آياتِنا فانسلَخَ مِنهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيطَانُ فَكَانَ مِن الغَاوِينَ، والجِهادَ الجهادَ؛ فهو من أفضلِ عباداتِكُم، وأشرفِ عَاداتِكُم، انصروا اللهَ ينصُرْكم، احفظوا اللهَ يَحفظْكُم، اذكروا اللهَ يذكرْكم، اشكروا اللهَ يَزِدْكم ويشكرْكُم، جِدُّوا في حَسْمِ الدَّاءِ، وقَلْعِ شَأفةِ الأعداءِ، وطهّروا بقيَّةَ الأرضِ من هذهِ الأنجاسِ التي أغضَبتِ اللهَ ورسولَهُ، واقطعوا فروعَ الكفرِ واجتثُّوا أصولَه، فقد نادَت الأيَّامُ يَا للثَّاراتِ الإسلاميةَ والمِلَّةَ المحمديَّةَ، اللهُ أكبرُ، فتحَ اللهُ ونصَرَ، غَلَبَ اللهُ وقهَرَ، أذلَّ اللهُ من كفَرَ، واعلموا – رَحِمَكُم اللهُ – أنَّ هذِهِ فُرصةٌ فانتهزوها، وفريسةٌ فَنَاجِزُوها، وغنيمَةٌ فُحُوزُوها، ومُهِمَّةٌ فَأخرجوا لَهَا هِمَمَكم وأبرزُوها، وسَيِّرُوا إليها عَزمَاتِكُم وجَهِّزُوها، فَالأمورُ بأواخِرِهَا، والمَكاسِبُ بِذَخائِرِها، فقد أظفرَكم اللهُ بهذا العدوِّ المخذولِ، وهُم مِثلُكم أو يَزيدُونَ، فَكيفَ وقَد أضحَى قُبالةَ الواحدِ

منهم منكم عِشرونَ!، وقد قالَ اللهُ تَعَالَى: ((إِن يَّكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتَيْنِ، وَإِن يَّكُن مِّنكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُم قَومٌ لَا يَفْقَهُونَ)) [الأنفال: ٦٥]، أعاننا اللهُ وإيّاكم علَى اتِّباعِ أَوامِرِهِ، والازدِجارِ بِزَواجِرِهِ، وأيَّدَنا مَعاشِرَ المُسلمِينَ بِنصرٍ مِن عندِهِ، ((إِن يَّنصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَّخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَّعْدِهِ)) [آل عمران: ١٦٠]، إنَّ أشرفَ مَقالٍ يُقالُ فِي مَقامٍ، وَأنفذَ سِهامٍ تَمرقُ عَن قِسِيِّ الكَلامِ، وأَمضَى قَولٍ تَحِلُّ بِهِ الأفهامُ، كلامُ الوَاحدِ الفَردِ العَزِيزِ العَلَّامِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ((وَإِذَا قُرِئَ القُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ))[الأعراف: ٢٠٤](١).

١) وفيَّات الأعيان، ابن خلكان، ص ٢٣١ – ٢٣٤، البداية والنهاية، أبو الفداء عماد الدين بن كثير، ج٧، ص٢١٢، دار الصفا للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١٨

- **مَسَاقاتُ النَّصّ الدَّاخِلِيَّةُ، وَالخَارِجِيَّةُ**

تشترك في بناءٍ أيّ من النصوصِ عِدَّةُ مُقوّماتٍ لُغَوِيَّةٍ تتضافرُ جميعًا فِي تكوينِ وحدةٍ دلاليَّةٍ متَّحدةِ الغايةِ والمَقصدِ، لا سيَّما لو كانَ ذلك النصُّ سرديًّا؛ إذ لا بُدَّ مِن تمتّعِه بمجموعةٍ مِن خصائصِ الجذبِ الَّتي تَأخذُ بِمجامعِ القلوبِ، وتَقفُ بالمتلقِّي عندَ حدودِ مَا يُفهِمُه مقاصدَهُ المتضمَّنةَ فيهِ، علاوةٌ على ما في ذلك من المتعةِ الجماليَّةِ([1]).

كما يُحوِجُ بناءُ أيّ نصّ إلى مجموعةِ مرتَكَزاتٍ ينهضُ عليها، تتشكَّلُ في بنيَتِهِ الدَّاخليَّةِ فتظهرُ في ألفاظِهِ وتراكيبِهِ، أو فِي مَعانِيهِ ودلالاتِه، وذلك ما يُسمَّى بالمَقامِ الخارجيّ، وثمَّةَ إحالاتٌ يَتوخَّى الناصُّ التعويلَ عليهَا في بناءِ نصِّهِ، لا يَنهضُ عَلَى سَاقٍ إلَّا بِهَا، وكانَ ممَّا رَسَمَ حدودَ السَماتِ الفنيَّةِ لِهذهِ الخُطبةِ التَّي اتَّسمت بِكلِّ خصائصِ العملِ الخطابيّ المَتميّزِ، تلك الإحالاتُ الَّتي جَعلتْ مَنهُ رافدًا مُنفتِحًا عَلَى آفاقٍ رحبةٍ وفَضَاءَاتٍ واسعةٍ وصلَتْهُ بغيرِهِ مِن النُّصوصِ القرآنِيَّةِ والنَّبَويَّةِ بِطريقِ الإحالةِ والتَّضمِينِ والاقتِباسِ.

ذلك حيثُ يقِفُ بنَا القاضي ابنُ الزَّكيّ عَلَى ملامحِ التَّجديدِ الخطابيّ في نصِّه هذا، بِمَا لَم يُسبَق إلَيهِ، باستِرفادِهِ الكَثيرَ مِن عَناصرِ البناءِ الفنيّ لِهذِه الخُطبةِ مِن السَّياقِ الخارجيّ تَارةً والنَّسقِ الدَّاخليّ أُخرَى، مُستَطرِدًا مِن مَقامٍ لِمقامٍ عن طريقِ الإحالاتِ، عَلَى مَا سنُجلِّي عَنه فِي مَواضِعِه مِن التَّحليلِ.

---

[1]) القصة القصيرة (نظريًا وتطبيقيًّا)، يوسف الشاروني، ص٧، كتاب الهلال، القاهرة، مصر، ١٩٨٩

أوَّلًا: الإحالاتُ النَّسقيَّةُ في النَصِّ

انطِلاقًا مِمَّا للعتباتِ النصيَّة مِن دَورٍ بَارزٍ في ظهورِ عَلاماتِ الاتِّصالِ الكامنةِ في تَضاعيفِ هذا النصّ، شَرعتُ في تَحليلِ الخطابِ السَّرديّ لِهذا النصّ تَبعًا لِمقضياتِ تلكَ العتباتِ؛ لِإبرازِ أثرِهَا فِي تَوجُّهِ الخطِيبِ القاضِي ابنِ الزَّكيّ فِيه، وَأوَّلُ مَا يُمكنُ الوقوفُ عندَه مِن عناصِر البنيةِ الفنيَّةِ لِهذا النصّ – وِفاقًا لأهدافِ العتباتِ النصيَّةِ الإجرائيَّةِ – النَّسقُ الدَّاخليُّ([1]).

حيثُ يقومُ النَسقُ الدَّاخليُ – بِمَا انضَوى تَحتَهُ مِن إحالاتٍ مِن النَّصّ عَلى النصّ أيضًا –، بِدَورٍ حيويّ فِي إرجاعِ المُتلقّي إلَى أصلٍ تَفرَّعتٍ عنهُ بعضُ البُنَى الدَّاخليَّةِ، أو تَذكيرِهِ بِمَا طَالَ بِه أمدُ الحديثِ فَأنساهُ إيَّاهُ، أو تَفصيلُ مُجمَلٍ اشتَملَ عليهِ النصُّ في بعضِ مَناحِيهِ.

ومِمَّا لَا خفاءَ فيه أنَّ لِهذا الرَّجُلِ فِي نَصِّه الّذي بَينَ أيدِينَا عددٌ مِن الإحالاتِ الدَّاخليّةِ اللَفظيَةِ أو المَعنويَّةِ، سَنأتِي عَلَى إيضاحِهَا هُنَا تِباعًا، مَعَ ربطِهَا بِعَتبَتِهَا النَصيَّةِ الّتي انبثقتْ عنهَا، فَجلَتْ عَن مضَامِينِهَا.

وَمِن الوَهلَةِ الأُولَى لِقراءَةِ نَصّ هذِه الخُطبَةِ نَجدُ الخَطيبَ القَاضِي ابنَ الزَّكيّ رَبطَ بينَ (الشَهادةِ بوحدانيَّةِ اللهِ، وبِصدقِ رسالَةِ نبيِّه ومُصطفاهُ) مِن قولِهِ: "وَأشهَدُ أن لَّا إلَهَ إلَّا اللهُ..." و(الحمدِ) الذي استهلَّ بِه مُجمَلَ الخطابِ، بِوصفِ ذلك الحمدِ لَا يَقعُ إلّا مِن مُعتَرفٍ بِالجميلِ، لِمُستَحقٍّ لهُ

[1]) ينظر: النص السردي في ضوء المقاربات النسقية في النقد الجزائري، أ.د خلف الله بن علي، ص١٧٩، مجلة اللغة الوظيفية، مج/ ٥،عد/ ٢، ٢٠١٧

عَلى جهةِ التَّخصيصِ، ولِمَا بينَ الحمدِ والشَهادةِ مِن الاعترافِ الآكِدِ بِأنَّ مبعثَ النّعمِ واحدٌ لَا شريكَ لهُ، وَأنَّه هوَ صاحبُ الفضلِ والسُّلطانِ.

ثمَّ ثنَّى بِالإحالَةِ الدَاخلِيّةِ الَّتي لَهَا عظيمُ ارتباطٍ بِنوعِ تلكَ الإحالةِ الأُولَى، فَعلَّلَ لِسببِ إذلالِ اللهِ تعالَى لِأهلِ الشَركِ وَطردِهِم مِن بَيتِ المقدسِ بِقولِهِ: " وَمُذِلّ الشّركَ بِقَهرِهِ... وُمستَدرِجِ الكُفَّارِ بِمَكرِه..."، حيثُ تَقعُ الشَّهادةُ بِوحدانيَّةِ اللهِ مِن هذا الكلامِ موقعَ السّببِ مِن النَّتيجةِ؛ فَإنَّ مِن موجِباتِ الشَهادةِ أنْ يُجاهِدَ المُصدِّقُ بِها عدوَّ اللهِ، انطلاقًا مِن العَملِ بِأوامرِهِ.

وقَد كنَّى القاضِي ابنُ الزَّكيّ هُنَا عَن قوَّةِ المُسلمِينَ وفتكِهِم بِالعدوِ الصّليبيّ بَالإعزازِ، وَكنَّى عَن انكسارِ وانهزامِ المُشركينَ بِالغلَبةِ والقهرِ، وَمَعَ تباعدِ الكِنايةِ عَن المَعنَى الذي تُحيلُ عَليهِ فِي النَّصّ؛ بِسببِ استطرادِ الخَطِيبِ، لَم يَنفِ ذلك عَن النَّصّ تَماسُكَهُ واتَّساقَ أجزائِهِ، بَل كَانَ مِن المُعِينَاتِ اللُّغويَّةِ عَلى الانسجامِ والتَرابطِ النَّسقيّ، خلافًا لِمَا ذهبَ إليهِ رُبورت دِي بوجراند فِي ذلك الصَّددِ([1]).

وقد جاءت إحالَاتُه الآنفةُ جميعًا موطِّئةً لِفكرَةٍ وَاحدةٍ مفادُها شُكرانُ النعمةِ الَّتي أعلاهَا الإسلامُ، مِن خلالِ تموقعِ هذهِ الفِكرةِ في نسقِ النصّ كَكُلٍّ، من موضعِها المحيطِ فيهِ إلى داخلِ الجملِ المعبَّرِ بها عنها

[1]) النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، تر/ تمام حسان، ص ٢٩٩، عالم الكتب الحديق، الأردن، ط١، ١٩٩٨

تبئيريًّا([1])، وهِي مِما اصطلحَ عليه اللّسانيونَ باسمِ الإحالةِ النَّصيَّةِ؛ لجريانِها "في جمَلٍ تامَّةٍ([2])"

كما وظَّفَ فِي بعضِ ملاحِظِنَا طرائقَ سِوَى الكنايةِ المُحِليَةِ عَلَى مَدلولٍ خاصٍّ في النصِّ نَفسِهِ، بعضَ أنظمةِ الرَبطِ النَسقيَةِ التَّركيبيّةِ، كَالضَّميرِ([3])، والاسمِ الظَّاهرِ، والواوِ العَاطفةِ والفَاءِ([4]) أُختِهَا، ومِمَا نُمثِّلُ بِهَ لذلَك قَولُه: " أيُّها النَّاسُ، أَبشِرُوا بِرِضوانِ اللهِ الَّذِي هُوَ الغايَةُ القُصوَى والدَّرجَةُ العُليَا لِمَا يَسَّرَهُ اللهُ عَلَى أَيدِيكُم مِن استردادِ هَذِهِ الضَّالَّةِ "، بِجعلِهِ مِن الضَّميرِ (هُوَ) مرجِعًا نَسقيًّا يَعودُ عَلَى الذَّاتِ الإلهيَّةِ، للتأطِيرِ بِه بينَ لفظِ الجلالةِ السَّابقِ عَلَى الاسمِ الموصولِ (الَّذي) وَمضمونِ جُملَةِ الصِّلَةِ بعدَ هذا الاسمِ الموصولِ: "هوَ الغَايَةُ القُصوَى"، مُنطلِقًا تَحتَ ذلكَ الإطارِ الّذي نسجَ بهِ عناصرَ تكوينِ النصِّ لِعطفِ قولِه: "الدَّرجةُ العُليَا..." بالوَاوِ عَلَى قولِهِ: " الغَايَةُ القُصوَى" جَاعِلًا مِنهُما نَسيجًا وَاحدًا مُتراكِبًا مُؤدِّيًا دَلالةً وَاحدةً متعدِّدةً الغاياتِ.

---

[1]) اللسانيات واللغة العربية، د. عبد القادر الفاسي الفهري، ص١٤١، الكتاب الأول، الرباط، المغرب، ط١، ١٩٨٥

[2]) الإحالة في نحو النصّ، د. أحمد عفيفي، منشورات كتب عربية، ص٧٣، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١١

[3]) قواعد الربط وأنظمته في العربية، ونظريات الربط اللغوي الحديثة، د. حسام البهنساوي، ص٢٣، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٨

[4]) المصدر السابق، ص٣٢

ثَانِيًا: الإِحَالَاتُ السِّيَاقِيَّةُ فِي النَّصِّ

ولقد أطَّرَ الخطيبُ القاضي ابنُ الزّكيّ لمحتوى خطابِه السّرديّ في تلك الخُطبةِ للعَلاقةِ بينَ مبناها ومرتكزاتِ صياغتِها الدّلاليّةِ، وبينَ ما تُوحي بهِ من معانٍ تتطلّبُ إلحاقها بغيرِها من الدلالاتِ الخارجِيّةِ الّتي تمثّلَها في حياتِه؛ فانعكستْ على ثقافته ببعضِ ما ساقَهُ من ذلكَ في خطابِه السّرديّ لهذهِ الخُطبةِ، من تعالقَاتٍ مقاميّةٍ لهَا مرجعيّةٌ دينيّةٌ واجترارٌ من الكِتابِ والسُّنةِ، وأخرى ثقافيةٌ تُفسّرُ بوجهِ إيرادِها في هذا النّصِ حقيقةَ مُكتسباتِ القاضي ابنِ الزَّكيّ الثقافيةِ وسعةَ اطّلاعاتِه وتماهيهِ مع الأحداثِ المتواترةِ علىٰ الإسلامِ والمسلمينَ في زمنِه والأزمنةِ الّتي سبقتْهُ، وثالثةٌ تاريخيّةٌ، أبرزَ من خلالِها صُورةَ الحقبةِ الزّمنيّةِ الّتي عبّرَ عنها ذلك النصُّ خيرَ تعبيرٍ بلغةٍ جزلةٍ رصينةٍ تبعثُ في نفسِ مُتلقّيها الدّافعيّةَ القويّةَ لاستقبالِ النّصِ مشدوهًا بهِ منعطِفًا إليهِ.

كما بلورَ بتلك المرجعيّةِ الإحاليّةِ الخارجيّةِ تصوُّرَه عن واقعةِ الفتحِ الأيوبيّ لبيتِ المقدس فكان ذلكَ أظهرَ ما ارتدَّ بأثرِه على متلقّي الخطابِ السرديّ لهُ؛ لاشتمالِ هَذا الخطابِ المُفعمِ بالحيويّةِ المشهديةِ، والنّشاطَاتِ اللُّغويّةِ المُتباينةِ على حقيقةٍ تاريخيّةٍ كانَ ابنُ الزّكيّ أوَّلَ مَن أرَّخَ لها بهذا النص.

وفيما يلي بيانٌ وافٍ بأنواعِ المرجعيّاتِ المقاميّةِ والإحالاتِ الخارجيَّةِ التي وقفنَا عليها في تلكَ التّوطئةِ على نحوٍ مُفَصَّلٍ:

١- الإحالاتُ الدّينيّةُ

وبوقُوفِنا علىٰ النّصّ في جانبِه الدّينيّ نجدُ الخطيبَ القاضي ابنِ الزّكيّ استنطقَ أكثرَ دلالاتِه بالرّبطِ المقاميّ الخارجيّ بينَ أبعاضِ خطابِه والقُرآنِ الكَريمِ، مُقتَبسًا مِنهُ مَا يَراهُ ملائِمًا لِدلالةِ خِطابِهِ، وَما يُجَلّي غشيةَ الظُّلمةِ عَن مُرادِهِ منهُ([1])، بِوصفِ الاقتباسِ: تَضمينًا لِلكلامِ شيئًا مِن القرآنِ أو السُنَّةِ – خاصَةً – لا على أنَّه من الكلامِ، والتَضمينُ، علَى خلافُ ذلكَ([2])، معَ في لتّضمينِ من العمومِ.

فَنَراهُ مرَّةً وضعَ بعضَ الآياتِ بلفظِها ومعناهَا موضعًا مُستحسَنًا من النّصّ؛ تعضيدًا لمقالةٍ، أو تأكيدًا لدلالةٍ ما، أو تباشُرًا وتبرُّكًا بها، أو للإحالةِ بها على معنىً أوسعَ وأدقَّ ممّا جاءَ بهِ في كلامِه المرسلِ في الخُطبةِ، لتكونَ الآيةُ تقييدًا لِلّذي أطلقَهُ من دلالةِ الكلامِ.

وتَارةً أخرى يُضمّنُ كلامَه بعضَ ما يسعى إلى استِثارةِ حميّةِ الرّجالِ، أو تمدُّحِ جِهادَهم، أو تشجيعهم على مواصلةِ كفاحهم ضدَّ عدُوّهم، فكانَ لكُلٍّ من الاقتباسِ والتّضمينِ بمعنَييهِما البّلاغيَّينِ أثرًا بارزَ الوضوحِ في تقويةِ هذه الخُطبةِ وشدّةِ تأثيرِها في الخَلْقِ، وكثرةِ تناقلِ النّاسِ لها أجيالًا مُتتابعةً([3]).

---

[1]) معجم البلاغة العربية، بدوي طبانة، ص٥١٩، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧

[2]) الإيضاح في تلخيص المفتاح، القزويني، تح/ عبد الرحمن البرقوقي، ص ٤٢٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٢

[3]) يُنظرُ لِتحريرِ الفرقِ بينَ الاقتباسِ والتَّضمينِ نصُّ ابنِ أبي الإصبعِ، تحرير التحبير في صناعةِ الشعر والنَّثرِ وبيانِ إعجازِ القرآنِ، (باب حسن التضمين)، ص ١٤٠،

- **التَّناصيَةُ معَ القُرآنُ**

لقدَ كانَ في استهلالِ الحَطيبِ بآياتِ القُرآنِ الدَّالَّةِ عَلَى مَا راحَ ينشدُه مِن معانٍ فِي تلكَ الخُطبةِ، أبلغُ التَّأثيرِ في نفوسِ المُتلقّينَ؛ طلبًا لِإرهافِ أسماعِهم إليهِ، وتشديدًا عَلَى أنَّ هذا الذي أنعمَ اللهُ بهِ عليهِم لهُ اجترارٌ تاريخيٌّ عَقَديٌّ، سبقَ للقران التَّنويهُ بِهِ، فِي إشَارةٍ إلَى ضرورةِ العملِ عَليهِ والحرصِ عَلَى تَحصِيلِهِ، فآثَرَ الافتتاحَ بِمَا يُنمّي ذلكَ الشُّعورَ لَدَى الجمهورِ، مِن القُرآنِ بآياتٍ بَيّناتٍ تنسجمُ معَ فحوَى الخطابِ المُوجبِ للحمدِ عَلَى ما أحلّهُم اللهُ فيهِ مِن المَقاماتِ المُوجبَةِ للحَمدِ، فَكانت تلكَ التَّناصيَّةُ أشْكلَ بِمقامِ الخِطابِ وَأدلَّ عَلَى الغرضِ مِن مَضونِه، وهوَ مِن الاقتباسِ المحمودِ، لا سيَّما أنَّ المقامَ تَذكيرٌ بِأفضالِ اللهِ تعالَى عَلى المُخاطبِ.

ولَم يكُن أجلَى فِي الكلامِ الدَّالِّ عَلَى حمدِ اللهِ تعالَى عَلَى ما أنعمَ بِهِ عليهِم مِن النَّصرِ، مِن أن يَسوقَ قَبساتٍ مِن نورِ الكِتابِ العزيزِ مِن سُورَةِ الفاتِحةِ مُبتدِئًا بِهَا الخُطبةَ، وفِي إشَارةٍ مُلمِحةٍ إلَى هذا الاقتِباسِ القُرآنيِّ الذي عوَّل عليهِ الخَطِيبُ فَي المُستَهَلِّ يَذكرُ ابنُ خلِّكانٍ أنّ ابنَ الزكيِّ: " لمَّا رَقِيَ المِنبرَ، استفتحَ بِسورةِ الفاتحةِ، وقَرأَهَا إلَى آخرِهَا، ثُمَّ قالَ: ((فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِيْنَ ظَلَمُوا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ)) [الأنعام: ٤٥]، ثُمّ قَرَأَ أَوَّلَ سُورَةِ الأَنعَامِ: ((الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَواتِ وَالْأَرْضِ، وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ))[الأنعام: ١]، ثُمَّ قَرَأَ مِن سُورةِ سُبحانَ: ((وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا)) [الإسراء: ١١١]، ثُمَّ قَرأَ أَوَّلَ سُورةِ الكَهفِ: ((الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبدِهِ الكِتَابَ))[الكهف: ١]، الآياتِ الثَّلاثةِ، ثُمّ قرأَ مِن سُورةِ النَّملِ:

المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، تح/ حنفي محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١٤

((قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِيْنَ اصْطَفَى))[النمل: ٥٩]، ثُمّ قرأَ مِن سُورَةِ سَبَأَ: ((الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ)) [سبأ: ١]، ثُمَّ قَرأَ مِن سُورَةِ فَاطِرٍ: ((الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ))[فاطر: ١]،([1]).

وتنبَّهُ ابنُ خلّكانٍ إلَى عَمْدِ القاضِي ابنِ الزَّكيّ لَإيرادِ تلَك الاقتباساتِ القُرآنيَّةِ، مُفتَتِحًا بِهَا، فَنصَّ عَلَى أنَّه: "كَانَ قَصْدُ ابنِ الزَّكيّ، أَن يذكرَ جَميعَ تَحميداتِ القُرآنِ الكَريمِ"([2]).

وتبدو الرَّعبةُ فِي إيرادِ تلكَ المحامدِ كُلِهَا فِي مَقامٍ كهذَا مُلِحَّةً عَلَى الخَطِيبِ فَي تَنبيهِ الغَافلِ مِن غفلتِه، وتذكيرِ الجَاحدِ بِمِنّةِ اللهِ عَلَيهِ ونِعمتِهِ، وَإقرارِهِ عَلَى أنَّ مَا تَحصَّلَ لهؤلاءِ مِن النَّصرِ والظَّفرِ مِن مُوجباتِ الحمدِ بِكُلِّ أنواعِ المَحامدِ.

ثُمَّ إنَّه لَم يَكتفِ بِالمُناصَصةِ بينَ كلامِهِ وَكلامِ رَبِّ العِزَّةِ عندَ هذا القدرِ الذي اتَّخذ منهُ سبيلًا لاستِهلالِ خُطبتِهِ، بَل حرصَ عَلَى إيرادِ مَا يُناسبُ مَقامَ الحمدِ مِن كلامِهِ فِي خُطبتِهِ تلكَ، كُلَّما عَرَضَ لهُ في أُفقِ الدَّلالةِ عارضٌ يُملِي عَلَيهِ التَّحميدَ وَالتَّمجيدَ.

- **التَّناصيَّةُ مَعَ السُّنّةُ**

ومِنَ التَّضميناتِ الَّتي اتّخذ منها القاضِي الزَّكيّ سبيلًا لإلهابِ جذوةِ الجِهادِ، وإذكاءِ قبساتِ العزِيمةِ في نفوسِ المُجتمِعينَ مِمَّن حضَر تلكَ الجُمُعةِ فِي بيتِ المقدسِ، قولُهُ: " وَهُوَ فِي أَرْضِ المَحشَرِ وَصَعِيدِ المَنْشَرِ"، وقولُهُ هذا مُقترِنٌ بمَعانٍ جليلةٍ مُؤدَّاهَا إلَى مَا ذكرتُهُ مِن تحفيزِ الجماهيرِ

---

[1]) وفيَّات الأعيان، ابن خلكان، ص ٢٣١ – ٢٣٤، مرجعُ سابقُ

[2]) المصدر السابق، ص٢٣٤

العريضةِ مِن المُسلمينَ عَلَى الجهادِ؛ حِفاظًا عَلَى مَا أولَاهُم اللهُ تَعالَى مِن نصرٍ مُبينٍ عَلَى العدوِّ الضَّالِّ، وَقدَ قَرَن القاضِي دلالةً هذا النَّصِّ بِمَا فِي الحديثِ النبويِّ: " أَنَّ مَيمُونَةَ مَولَاةَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَفْتِنَا فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟، فَقَالَ: " أَرْضُ الْمَنْشَرِ وَالْمَحْشَرِ، ائْتُوهُ فَصَلُّوا فِيهِ، فَإِنَّ صَلاةً فِيهِ كَأَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ ، قَالَتْ: أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يُطِقْ أَنْ يَتَحَمَّلَ إِلَيْهِ أَوْ يَأْتِيَهُ؟، قَالَ:: " فَلْيُهْدِ إِلَيْهِ زَيْتًا، يُسْرَجُ فِيهِ، فَإِنَّ مَنْ أَهْدَى لَهُ كَانَ كَمَنْ صَلَّى فِيهِ (١)"، وفِي اقترانِ دلالةِ المَعنَى المُرادِ مِن خِطابِ القاضِي معَ حديثِ النبيِّ الآنفِ مَا يشدُّ بهِ الخطيبُ عَلَى قلوبِ الجَماهيرِ وَيُحرِّضُهم بِهِ عَلَى التزامِهم هَديَهُ صلى الله عليه وسلم في ذلك الجانبِ.

١) مُسنَدُ الإمام أحمدَ، مِن حديثِ ميمونةَ زوجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، الإمام أبو عبد الله أحمد محمد ابن حنبل: (٦/ ٤٦٣)، تح، أحمد محمد شاكر – حمزة الزين، دار الحديث، ط١، ١٩٩٥

٢- الإحَالاتُ الثَّقافيّةُ

وفيمَا أعملَ فيهِ الخَطيبُ ثقافَتَه الواسعةَ ومرجعيَّاتِه اللامتناهية(١)، ممَّا يبعثُ عَلَى الحُكمِ عَلى رقعةِ اطِّلاعِهِ عَلَى شؤونِ دِينِهِ بَبلوغِ الغايةِ المنتَهَى إلَيهَا، استنادُهُ إلَى الآثارِ المَحفوفةِ بِالشَّواهدِ الضَّمنيَّةِ عَلَى مَا رَاحَ ينَشُدُهُ مِن تعزيزٍ لِمظاهرِ الرَبطِ بينَ مساقاتَ حَديثِهِ الداخلية وَالمَقامَاتِ الخَارِجيَّةِ مِن قولِهِ: " فَهُوَ مَوطِنُ أبيكُم إبراهِيمَ، ومِعرَاجُ نَبيِّكم مُحمَّدٍ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقِبلَتُكُم الَّتي كُنتم تُصلُّونَ إليهَا فِي ابتَداءِ الإسْلامِ، وَهُو مَقَرُّ الأَنبِياءِ، ومَقصدُ الأَولِيَاءِ، وَمَدفنُ الرُّسُلِ ومَهبَطُ الوَحيِ، وَمنزِلٌ بهِ يَنزلُ الأَمرُ وَالنَّهيُ... وَهُو فِي الأَرضِ المُقَدَّسَةِ الَّتي ذَكَرَهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ المُبِينِ، وَهُو المَسجِدُ الأَقصَى الَّذِي صَلَّى فِيهِ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِالمَلَائِكَةِ المُقرَّبِينَ، وَهُو البَلَدُ الَّذي بَعَثَ اللهُ إِلَيهِ عَبدَهُ ورَسُولَهُ وكَلِمَتَهُ الَّتي ألقَاهَا إِلَى مَريَمَ، ورُوحَهُ عِيسَى الَّذِي كَرَّمَهُ بِرِسَالَتِهِ وشَرَّفَهُ بِنُبُوّتِهِ، وَلَم يُزحزِحْهُ عَن رُتبَةِ عُبودِيَّتِهِ "

٣- الإحَالاتُ التَّاريخِيّةُ

وَإِنَّ أَوَّلَ مَا يُمكنُ الاحتكامُ إليهِ فِي الحُكمِ عَلَى إحالاتِ القاضِي ابنِ الزّكيِّ الَّتاريخيَّةِ فِي هذا السَّردِ الخَطابيِّ، مُناسَبةُ الخُطبَةِ، فَإنَّهَا الخُطبَةُ الأَولَى اَلتي تُلقَى فِي بَيتِ المَقدسِ فِي الجُمُعةِ الأَولَى بَعدَ الانتصارِ وَاَستردادِ هذَا المَكانِ مِن يدِ غَاصِبيهِ، ثَمَّ إحالَتُهُ عَلَى بعضِ الظَّواهرِ التَّاريخيَّةِ المُضمَّنةِ فِي نَّصٍ تَعدَّدت مَرجعيَّتُهُ الإحالِيَّةُ فَتعالَقتْ جَميعًا لِتُفضِي بِنَا إلَى هَدفٍ وَاحدٍ مِن السَّردِ، عوَّلَ فِيهَ عَلَى بعضِ التَّقنياتِ المُبكِّرَةِ

(١) المرجعيات الثقافية وبناء المتخيل السردي، د. غرابة نور الهدى، ص٢٢٨، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، عد/ ٢٢، ٢٠٢١

الَّتي عَاجَلَ بِهَا المُتلقِّي كَتقنيةِ اللُغَةِ المُتسارعةِ([1]) الَّتي حَمَّلَهَا فِي جُمَلٍ صَغيرَةٍ ذاتَ فواصِلَ سجعيَّةٍ قَصيرةٍ، لِكُلِّ فَاصِلَةٍ مِنهَا دَلالةٌ مُستَقِلَّةٌ كقولِهِ: " الحَمدُ للهِ مُعِزِّ الإسلَامِ بِنَصرِهِ، وَمُذِلِّ الشِّركِ بِقَهرِهِ... ومُستدرِجِ الكُفَّارِ بِمَكرِهِ... وَجَعَلَ العَاقِبَةَ لِلمُتَّقِينَ بِفَضلِهِ، وَأَفَاءَ عَلَى عِبَادِهِ مِن ظِلِّهِ، وَأظهَرَ دِينَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ... أَحمَدُهُ عَلَى إظفَارِهِ وَإظهَارِهِ، وَإعزَازِهِ لِأَولِيَائِهِ وَنَصرِهِ لِأَنصَارِهِ، وَتَطهِيرِ بَيتِهِ المُقَدَّسِ مِن أَدنَاسِ الشِّركِ وَأَوضَارِهِ ".

حيثُ يُحِيلُنَا بِذلكَ المَزجِ المُتناسجِ مِن عَناصِرَ السَّردِ ومُكوِّناتِهِ الَّتي أعملَ فِيهَا مَجموعةً مُتباينةً مِن التَقنياتِ والَّتي أناطَهَا بِوظائفَ مُتعدِّدَةٍ، مِنهَا التَوجيهُ، والَّتقييمُ وَوضعُ المُتلقِّي بَإزاءِ مَا أرادَ توجيهَهُ إليهِ مِن طَريقِ الإخبارِ بِالأفعالِ اللُّغويَّةِ الإخباريّةِ غَيرِ المُباشِرَةِ، عَلَى بَعضِ التَواريخِ الحَربيَّةِ الَّتي يَستحضِرُهَا المُرسَلُ إليهِ بِمجرَّدِ استماعِهِ إلَى مَقالتِهِ هَذِهِ، كَحروبِ النبيِّ وَحروبِ صَحابَتِهِ مِن بَعدِهِ، جِهادًا فِي سَبيلِ اللهِ تَعالَى وَرفعًا لرايةِ الدِّينِ الحَنِيفِ.

وَقدَ اعتمدَ الخَطيبُ فِي إظهارِ القِيَمِ البَارزةِ فَنيًّا فِي نَصِّهِ هذا عَلَى مَجموعةٍ مِن التَّقنياتِ السَّرديَّةِ ذاتِ البُروزِ اَلجلِيِّ بِمَا يُوضِّحُ لَنَا شَدَّةَ تَأثُّرِهِ بَالحَدثِ وَمَكانِ وقوعِهِ؛ إذ إنَّ مَناسَبةَ الخُطبةِ هِيَ مَا أملت عَليهِ طريقَةَ الصَّياغةِ وَأسلوبَ التَّناولِ وَالعرضِ، وَكانَ مِن مُجمَلِ مَا ضَرَب بهِ ابنُ الزَّكيِّ سُورًا حَولَ خُطبَتِهِ مِن الملامِحِ التَّقنيةِ المَشهودَةِ فِي السَّردِ الحَطابيِّ:

- **الحَدَثُ:**

([1]) ينظر: المرجعيات الثقافية في النص الأدبي السردي القديم (مقدمة كليلة ودمنة)، د. نورا محمد عمر، ص٣٢٢، مجلة مجمع الماليزية، عد/ ٣٢، ٢٠٢٠

وكانَ – كَما قدَمنا لِمنُاسَبةِ الخُطبَةِ –شديدُ الوَقْعِ فِي نَفسِ هذا الخَطيبِ المُتفَنّنِ، إلَى الغايةِ الَّتي دَعتْهُ لِلتَّلويحِ بِالحَدثِ الَّذي قَادَهُ إلَى إلقائِهَا فِي الحُضورِ مُغرّدًا بِذِكرِ سَبَبِهَا، فَضمَّنَ مَعانِي الانتصارِ وَالظَّفرِ بِالعدوّ فِي فَتحِ بَيتِ المَقدسِ فَي مَواضِعَ عِدَّةٍ مِن النصّ السرديّ، بِمَا يُغنِي عَن إعادتِهِ هُنَا.

ومِن إبداعاتِ السَّردِ فِي هَذِه الخُطبَةِ مَيلُ الخَطِيبِ إلَى التَّنويعِ مِن الشَواهدِ والأدلَّةِ عَلَى إيرادِ الحَدثِ، فَلم يَكتَفِ بِذكرِ الحَدثِ وَالمُناسَبةِ مُجرَّدًا([1])، بَل لَم يُفَوّت سَانحةَ الانتِصَارِ إلَّا بِتذكِيرِ المُسلِمينَ بِسوالِفِ الأيَّامِ وَانتصاراتِ السَّابقينَ مِمَّن صَدقوا اللهَ فَصَدَقهُم اللهُ تَعالَى، وَلِتعزِيزِ المَعنَى فِي نُفوسِهِم وَلِتحريشِهِم بِعَدمِ الرَّكونِ أخبرَ بِطريقِ التَّحذيرِ وَالتَّنبيهِ بِضَرورةِ عَدمِ الرَّكونِ إلى هَذا الانتصارِ والاتِكالِ عَليهِ، فَكانَت بَعضُ الانكساراتِ فِي التَّرتيباتِ أو الاستطراداتِ وَمِن ثَمَّ العودةُ سَبيلًا إلَى كَسرِ رَتابةِ السَّردِ المُتراسِلِ وَالمُتراتبِ، وهذا مَدعاةٌ لِلالتِفاتِ إليهِ وَالإصغاءِ إلَى مَا يَقولُ.

- **الزَّمانُ([2]):**

وفِي هذا الصَّددِ لَا يُمكِنُ تَحديدُ مَلامِحِ اَلزَّمنِ الَّذي أُلقِيَت فِيهِ هذِه الخُطبَةِ إلَّا بِالرُّجوعِ إلَى المَصادرِ اَلقاطعةِ بِأنَها أوَّلُ خُطبَةٍ أُلقِيَت فِي بَيتِ المَقدسِ فِي المَسجدِ الأقَصَى مِنهُ بَعدَ انتصارِ المُسلِمينَ بِقيادَةِ صَلاحِ الدِّينِ الأيُّوبيّ عَلَى أندادِهِ مِن أهلِ الشَّركِ وَطردِهِم شَرَّ طردَةٍ مِنهُ.

---

[1]) عودة إلى خطاب الحكاية، جيرار جينت، تر/ محمد معتصم، ص٥٦، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠

[2]) زمن السرد في روايات (فضيلة الفاروق)، ص١٤، أطروحة دكتوراة، جامعة الحاج لخضر، كلية الآداب واللغات، باتنة، الجزائر، ٢٠١٤

وهوَ هُنا قد سَارَ عَلَى مِنوالِ سَابقِيهِ فِي السَّردِ الخَطابيّ، فَلم يَجِد عَن التَّرتيبِ الزَّمنيّ للأحداثِ، بَل ظلَّ مُتَابعًا لِمَساراتِ الأحداثِ بدفعِ بَعضِهَا نَحوَ بعضٍ عَبرَ أزمِنَتِهَا المُختلِفَةِ، مُفتَتِحًا بِحَمدِ اللهِ عَلى مَا تحقَّقَ عَلَى يَدِ النَّبيّ فِي السَابقِ مِن انتصاراتٍ، ثُمَ مَن تَابَعَهُ مِن خُلفَائِهِ، ثُمَّ مَن وَلِيَهُم مِمَّن جَاءَ بَعدَهُم، إلَى أنْ آلَتِ الخِلافَةُ إلَى الأَيُّوبِيَّينَ، غَيرَ أنَّه عَالجَ انتكاسَةَ اَلتَّرتيبِ الزَّمنيّ المُؤدِّيَةِ إلَى السَّآمَةِ وَالرَّتابَةِ، بِذلك الانكسارِ المركزيّ للأحداثِ وَالَّذي أدَارَهُ فِي أفلاكٍ مُتعَدِّدةٍ، مُستدرِجًا بِهِ المُخاطبَ للوصُولِ إلَى الغايةِ، فعمَدَ إلَى الحذفِ مَرَّةً، وَالاستِباقِ أُخرَى، وَالتوقُّفِ ثَالِثَةً، وَالارتِدادَ أُخرَى.

- **المَّكانُ:**

وقدَ لَعِبَ المَكانُ دَورًا حَيويًّا وعُنصُرًا لَا يَشكُلُ عَلَى المُتلقّي تَأثيرُهُ فِي نَفسِهِ، حَيثُ ربطَ الشَّاعرُ بينَه وبينَ أحداثِ الفتحِ الَّتي كانتْ بِسبَبه، بما لهذا المكان من تشكُّلاتٍ أدبيةٍ أنتجتْ أثرها في نفسِ الخطيب بحسبِ زعم غاستون بشلار([1])؛ لأنَّ ملامحَ البُطولَةِ وَالَّتي شَكَّلت جزءًا مُهِمًّا مِن الحَدثِ الكُليّ لِلسَّردِ هُنَا لَم تَكُن لِتنفصِلَ عَن هذا المَكانِ الَّذي أعطانا ابنُ الزَّكيّ صُورةً حَيَّةً عنهُ بِتشكيلاتِهِ اللُّغويَّةِ الَّتي أقحمَهُ فِيهَا بِطُرقٍ مُتعدَّةٍ، فَمرَّةً يُعبّرُ عَن اسمِهِ صَراحةً مِن قَولِهِ: " المَسجد الأقَصَى..." وَمَرَّةً يُكنّي عَن اسمِهِ بِبَعضِ صِفاتِهِ، كبيتِ اللهِ وحَرمَهِ، وَمَعراجِ النبيّ...إلخ.

وَفِي المَوضِعِ الَّذي صَرَّحَ بِاسمِهِ العَلَمِ، كَانَ الأنسبَ بِالتَّصريحِ لِحاجةِ السَّامعِ إلَى تذكيرِهِ بِهِ وردِّهِ إلَى أصلِ الحَدثِ البَاعثِ عَلَى إيرادِهِ افتخارًا، والموقعُ الَّذي كَنَّى عَن اسمِهِ بِبَعضِ نَعوتِهِ المُسقَطَةِ عَلَيهِ أصلًا أو بنتيجةً لِمكانتِهِ كَان الأولَى لِنعتِهِ بتلكَ الصّفاتِ فيهِ؛ لِمَا لَهَا مِن وقْعٍ عَلى النَفوسِ يُسهِمُ فِي تَعزيزِ رَؤى الخِطيبِ ويُنزِلُهُ مِنهَا مَنزلةَ القُدسيَّةِ المُستَحقَّةِ لهُ، بِوصفِهِ عَلمًا مِن أعلامِ النبوَّةِ ورمزًا مِن رموزِ الاعتقادِ.

---

[1]) بنية السرد وجمالية التفاصيل (الحدث، المكان، الشخصية)، ص١٢١، أطروحة دكتوراة، كلثوم عماري، جامعة الشهيد حمه لخضر، كلية الآداب واللغات، ٢٠١٩

- **المُقدّمة**

وممّا يَقتسمُ النَّصَّ اقتسامًا عَادلًا مَعَ الخِتامِ، والشَّخصياتِ وَالزَّمنِ وَالأحداثِ، المُقدّمَةُ الَّتي تُعدُّ رَأسَ الموضوعِ وَحَاضنةَ الفِكرةِ وَدليلَ المُتلقِي إلَى مَعرفةٍ مَا يَلجُّ فِي خَاطرِ صَاحبِ السَّردِ، وَقدَ بَرعَ الخطِيبُ فِي هذا النصّ فَي اختيارِ العَناصرِ الأساسيَّةِ مِن اللُّغةِ فِي بِناءِ مُقدّمَتِهِ، لَيضَعَ القارئَ بتَلكَ العَناصرِ حَيالَ مَوضوعِهِ بِصورةٍ مَباشرةٍ صَريحةٍ مِن غيرِ أن يُسهِبَ فِيهَا أو يُحلّقَ بِهَا خَارجَ مُناسبةِ الخُطبةِ.

- **الخاتمة**

وَلَم تَكن الخَاتمةُ أقلَّ فِي التَّجنيسِ اللغويّ قَوَّةً مِن التَّقدمةِ الاستهلاليَّةِ الَّتي افتتحَ بِهَا القَاضي ابنُ الزَّكيّ، بَل جَاءتْ مُلِمَّةً بِكلِّ مَا رَغِبَ الخَطيبُ فِي تَوصيلِهِ إلَى مُخاطبِهِ، وَلنَقِف عندَ قَولِهِ مِنَها: " فَالأُمُورُ بِأَوَاخِرِهَا، وَالمَكَاسِبُ بِذَخَائِرِهَا، فَقَد أَظفَرَكُم اللهُ بِهَذَا العَدُوّ المَخذُولِ، وَهُم مِثلُكُم أَو يَزِيدُونَ، فَكَيفَ وَقَد أضحَى قُبَالَةَ الوَاحِدِ مِنهُم مِنكُم عِشْرُونَ..؟" لِنُدركَ كَيفَ أنَّه أملَى كلَّ مطالبِهِ وَتوجِيهاتِهِ عَلَى مُخاطبِيهِ بِتلك الكلماتِ الحَاسمةِ الَّتي لا يطلبُ بَعدَهَا مُستزيدٌ الزِّيادةَ عَليهَا، لا سِيَّمَا أنَّهُ أتبعَهَا بِبعضِ آياتٍ مِن القرآنِ تَحسمُ كذلكَ المَقامَ.

- **الشَّخصِيَّاتُ فِي النَّصّ (الخُطبَةِ)**

مِن حيثُ كَانتِ الخُطبةُ نصًّا أدبيًّا مَبنيًّا فِي أصلِهِ عَلَى الوَعظِ والتَّوجيهِ وَالتَّشجيعِ، لَم يَكُن مِن ضَوابطِ صِياغتِهَا وَلا مِن مُقوّماتِ بِنائِهَا الشَّخصياتُ، غيرَ أنَّ دراسةَ هذا النصّ تقودُنا إلَى النَّظرِ فِي شِخصِ المُرسِلِ وَهوَ ابنُ الزَّكيّ، والمُرسَلِ إليهم وهُم جمهرةُ المُسلِمينَ؛ لِأنَّ بطولَتَهُ الحقيقيَّةَ تَتمظهرُ

هُنا فِي حُسنِ قَيادِهِ للخُطبةِ وقُوَّةِ توجيهِ النَّاسِ بِهَا إلَى أمرٍ مُلزِمٍ لَا يَتأتَى لِغيرِهِ القيامُ بِه عَلى الوجهِ الَّذي قَامَ هوَ بِهِ.

كَما رَاعينَا فِي هذا النَّصّ إعمالَ النَّظرِ فِي ذلك الدَّورِ الَّذي قامَ بِهِ الجمهورُ (مُستقبِلُو الخُطبةِ)؛ فَإنَّ لهم وظيفةً ثَانويَّةً تفرَّعت عَلَى وظيفةِ الخَطِيبِ نفسِهِ، ومعَ ثَانويةِ تلك الوظيفةِ نَجدُ أنَّهم مَصدرَ إلهامِ الخَطِيبِ، إذ لَو لَم يَكن لهم مِن الإسهامِ فِي تَوجهِيهِ إلَى تلك القوَةِ وهذِه الإجادةِ إلَّا أنَّه استشعر في وجودهِم الحماسةَ الدَّافعةِ بِهِ إلَى التّرفُعِ بِلُغةِ الخُطبةِ عَمّا يَزرِي بِهَا لَدَيهم، لكانَ ذلكَ كافِيًا فِي وضعِهِم فِي مَرمَى النَّظرِ.

(المَبحَثُ الثَّانِي)خُطبَةُ ابنِ الزَّكيّ فِي تَحرِيرِ بَيتِ المَقْدِسِ فِي ضَوءِ التَّحلِيلِ البَلَاغِيّ

كَانَ مِمَّا أطلَّ عَلينَا بِرأسِهِ فِي ذلكَ النَّصّ السَّرديّ الخَطابِيّ بَعضُ المَلامحِ الَّتي اتَّخَذَ مِنها ابنُ الزَّكيّ مِعيارًا لِلبناءِ الفَنيّ للسَّردِ، وهوَ فِي ذلكَ سَائرٌ عَلَى دَربِ مَن سَبقَهُ إلَى هذا اللَونِ الأدبيّ الإبداعيّ مِن الأسلافِ – زَمنَ صَدرِ الإسلامِ وَتَوابِعَه – فَقد اعتمدَ فِي مُجمَلِ هذِه الخُطبَةِ عَلَى مُقوّماتِ البِناءِ الفنيَّةِ المُمنهَجَةِ وَالمُوصّلَةِ لِلغرَضِ مِن الخُطبَةِ([1])، بِمَا لَهَا مِن تَأثيرٍ إبلاغيّ يَجعلُ للنصّ قِيمَةً جَماليَّةً وَأُخرَى دَلاليَّةً تُشيرُ إلَى قُوَّةِ حُجَّتِهِ وَظاهريَّةِ فَحوَى خِطابِهِ.

وَليسَ أجلَى فِي تَحقيقِ هاتَينِ الغَايَتَينِ مِن تَوظيفِ الظَواهرِ التَّصويريَّةِ فِي بَلوغِ الغَايةِ المَنشودَةِ مِن النصّ.

- **الدّلالاتُ المَعنويَّةُ، وَأثَرُها البَلَاغيّ**

الفَصلُ والوَصلُ:

وقَد عَرَّجَ الخَطيبُ ابنُ الزَّكيّ فِي تَحريرِ مَغازِي هذا الخِطابِ السَرديّ عَلَى جانبٍ موفورٍ مِن بلاغةِ المَعَانِي، فَها هوَ فِي قَولِهِ: " وَأَشهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ رَافِعِ الشَّكِّ، وَدَاحِضِ الشِّركِ، وَزَاحضِ الإفْكِ، الَّذي أَسرَى بِهِ مِن المَسجِدِ الحَرامِ إلَى هَذَا المَسْجِدِ الأَقْصَى، وَعَرَجَ بِهِ مِنهُ إلَى السَّمَاوَاتِ العُلَا إلَى سِدرَةِ المُنتَهَى، عِندَهَا جَنَّةُ المَأوَى، مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى، صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَعَلَى خَليفَتِهِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ السَّابِقِ إلَى الإيمَانِ "، يَصِلُ

---

[1]) ينظر: الخطابة العربية (مقومات البناء، ودلالات التعبير)، د. جبر منسي، ص ١٣٢، دار مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٩٩

بعضَ الكَلامِ بِبَعضِهِ، وَيَقطَعُ بعضَهُ عَن بَعضٍ بِتوسيطِ حَرفِ العَطفِ (الوَاوِ) المنوطِ بِهِ القَطعُ([1]).

مُوجِباتُ الفَصلِ، ودواعِي الوصلِ:

وبَدَا لَهُ فِي هذا النَصّ فِي كَلّ مَيدانٍ مِن هَذين المَيدَانينِ مَا حَمَلَهُ عَلَى الوصلِ تَارةً والفصلِ أُخرَى، فَقطَعَ عِندَ إرادَةِ تَعديدِ النَعوتِ فَعَطَفَ بَعضَهَا عَلَى بَعضٍ بَالوَاوِ، مِن قَولِهِ: " وَدَاحِضِ الشِّركِ، وَرَافِعِ الإِفْكِ..." طَلَبًا لِلتَّنبِيهِ عَلَى أنَّ كلًّا مِن الدَّحضِ وَالرَّفعِ مَعنًى يَستقِلُّ عَن صَاحبِهِ فِي القيمَةِ والدَّلالةِ، فَهُما نعتانِ مُلازِمانِ لِرسالَةِ النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يَنفكَّانِ عَنهُ وَلا عنهَا، غَيرَ أنَّ كلًّا مِنهما استقَّل بِدلالتِهِ عَن الآخَرِ، إلَى حدّ صَيرورتِهما صيرورةَ الأعلامِ، فَاستلزمَ ذلك القطعُ لاختلافِ الدلالةِ، وذلك مُبرِزٌ لِذهابِ الخَطيبِ مَذهبَهُ فِي الفصلِ هنا.

عَلَى حينِ أنَهُ وَصَلَ بَينَ بعضِ الفِقراتِ والعِبَاراتِ بِمُوجبِ الوصلِ بَينَهَا لِوقوعِهَا جَميعًا مَوقعًا وَاحدًا فِي حَيّزٍ إعرابيٍّ وَاحدٍ يَحملُ مَعَ التَّركيبِ اَلنَّحويّ دَلالةً وَاحدةً، كَقولِهِ: " وَرَاحضِ الإِفْكِ، الَّذي أَسرَى بِهِ مِن المَسجِدِ الحَرامِ إِلَى هَذَا المَسْجِدِ الأَقْصَى " وقولِه: " وَعَرَجَ بِهِ مِنهُ إِلَى السَّمَاوَاتِ العُلَا إِلَى سِدرَةِ المُنتَهَى، عِندَهَا جَنَّةُ المَأوَى، مَا زَاغَ البَصَرُ " فَوصَلَ الاسمَ المَوصولَ (الَّذي) مِن قَولِهِ: "الإفكِ الَّذي..." تَنبيهًا عَلَى أنَّ هذا الاسمَ الموصولَ مِن تَمامِ فَائدةِ الجُملَةِ مقصودًا بِهِ نَعتُ الضَّميرِ مِن قَولِهِ: " رَاحِضِ..." ومِن حَيثُ

[1]) أسرارُ البلاغةِ، الإمامُ عبد القاهر الجرجانيّ، تحقيق وتعليق/ محمد رشيد رضا، ص١٠٢، مكتبة مصر، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٥٢

كَانَ لَا يُفصَلُ بَينَ النَعتِ وَمنعوتِهِ بِحرفٍ مِن حروفِ العَطفِ تَابَعَ بَينَ النَعتِ وَمنعوتِه فِي مُتوالِيَةٍ وصلِيَّةٍ.

الخَبَرُ والإنشاءُ:

وَمِن طَرائقِ إنتاجِ الدّلالةِ فِي هذا النصّ السَّرديّ توجُّهُ السَّاردِ فِيهِ إلَى إعمالِ الخَبَرِ فِي مَعنَى الإنشَاءِ مِن قَولِهِ: " الحَمدُ للهِ مُعِزّ الإِسْلاَمَ بِنَصرِهِ، وَمُذِلّ الشِّركِ بِقَهْرِهِ، وَمُصَرّفِ الأُمُورِ بِأَمرِهِ، وَمُدِيمِ النَّعمِ بِشُكرِهِ، وَمُستَدرِجِ الكُفَّارِ بِمَكرِهِ، الَّذي قَدَّرَ الأَيَّامَ دُوَلًا بِعَدلِهِ، وَجَعَلَ العَّاقِبَةَ لِلمُتَّقِينَ بِفَضلِهِ، وَأَفَاءَ عَلَى عِبَادِهِ مِن ظِلِّهِ، وَأَظهَرَ دِينَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، القَاهِرِ فَوقَ عِبَادِهِ فَلَا يُمَانَعُ "، فَأنتَ تَرَى كَيفَ أَنَّهُ سَاقَ مِن الأفعالِ اللُّغويَّةِ مَا يَدلُّ بِطريقةِ الوَضعِ عَلَى المَاضويَّةِ أو الحَالِيَّةِ، إلَّا أنَّ الدَّلالَةَ المُرادَةَ مِنهُ تَذهبُ بِهِ فِي مَهبِ بَعيدِ المَرمَى مِمَّا قَد يُجَلِّي عَنهُ ظَاهرُ المَعنَى؛ فَقد نَحاَ المَعنَى الاستعماليُّ منحًى يُغايرُ ذلكَ الَّي يَدلُّ عَلَيهِ بَالوضعِ.

وَهذا وَاضحٌ فِي رَدِّ المَقصودِ إلَى غَايَةِ السَّاردِ مِن استعمالِهِ فِي سِياقِهِ الَّذي تَضَامَنَتْ فِيهِ قَرينةُ الحالِ مَعَ قَرينةِ المَقالِ؛ لِإخراجِهِ مَخرجَ الإنشَاءِ، فثبوتُ الحَمدِ للهِ تَعَالَى، ثَناءٌ عَلَيهِ، والثَّناءاتُ إنشَاءٌ يُطلَبُ بِهِ امتداحُ الذَّاتِ المُثَنَى عَلَيهَا، وَليسَ أحقَّ مِن اللهِ تعَالَى بِذلكَ.

وَإدامَةُ النَّعمةِ عَلَى الأخيَارِ، واستَدراجُ الكفار من الإخبارِ المُضَمَّنِ مَعنَى الإنشَاءِ، فَهوَ ثَناءٌ مُوجبٌ لِلخشَيةِ مِن اللهِ، وعَلَى الطَّريقَةِ نَفسِهَا سَارَ فِي التَّدلِيلِ عَلَى قُدرَةِ اللهِ وَامتلاكِهِ ناصية كلّ أمرٍ مِن قَولِهِ: " وجَعَلَ العَاقِبَةَ لِلمتَّقِينَ بِفَضلِهِ..." .

كَما أعملَ الإنشاءَ الطَّلبيَّ بِالفعلِ الأمرِ فِي غَيرِ مَوضعٍ مِن هذا الخِطابِ السَّرديّ مَعمَلَ الخَبَرِ، فَقالَ: " أَبشِرُوا بِرضوَانِ اللهِ الَّذِي هوَ الغَايَةُ القُصوَى، والدَّرجةُ العُليَا لِمَا يسَّرَهُ اللهُ عَلَى أَيدِيكُم مِن استِردَادِ هَذِهِ الضَّالَّةِ..." فَفِعلُ الطَّلَبِ المَأمورِ بِهِ هُنَا (أَبشِرُوا) خارجٌ عن حقيقةِ أدائِه الوظيفيَّةِ المَعلومةِ بِالوضعِ، إلَى رَغبةِ الإخبارِ بهِ عَن تَحقُّقِ رِضا اللهِ تعالَى عَن هؤلاءِ المُخاطبينَ؛ لِنزولِهِم عن أمرِ وتسليمِهِم لهُ وَإذعانِهِم بِهِ، كَأنَّه أخبَرَهم بَأنَّهم فَعلوا مَا تحصُلُ بهِ البِشارةُ، فليسَ ثمّةَ مَا يَحولُ بينَهم وبينَها الآنَ.

- **الصُّورُ البَيانيّةُ:**

وكانَ مِمَّا وظَّفَ فيهِ بعضَ الصُّورِ البيانيَّةِ المُلهمَةِ قَولُهُ: " وَلَا تُعقَدُ الخَنَاصِرُ – بَعدَ المَوطِنَينِ – إلَّا عَلَيهِ " حيثُ كنَّى عَن شِدَّةِ حِرصِ النَّاسِ عَلَى إتيانِهِ والدِّفاعِ عنهُ والاستِماتةِ في سَبيلِهِ بِالخَناصِرِ المُنعقِدَةِ بَعضِهَه بِبَعضٍ، و(الخِنصَرُ) أصغرُ الأصابعِ مِمّا يَلِي (البِنصَرَ)، ومرجعُ الكِنايةِ فِي شِدَّةِ الحرصِ عَلَى الشيءِ إلَى هذا الإصبعِ، جَريانُ عادةِ العربِ عَلَى أنَّ تعقِدَ بينَ خناصِرِها حالَ عندَ إرادةِ فعلِ الشيءِ أو تركِهِ بِقوَّةٍ([1]).

ومِن إجرائِهِ لِمعانِيهِ الدَالَّةِ عَلَى تَوجيهِ مُخاطبيهِ إلَى ما يُنتِجُ في نفوسِهِم العزمَ الصَّادقَ والقوَّةَ الصَّارمةَ، فِي صُورةٍ بيانيَّةٍ استعاريَّةٍ، قَولُهُ: " وَشَكَرَ لَكُم مَا بَذَلتُمُوهُ مِن مُهَجِكُم فِي مُقَارَعَةِ الأَعدَاءِ " مُستَعِيرًا (الُمهَجَ) وَهيَ دَمُ القَلبِ، لِمَا قَدَّمَوهُ مِن الاستبسالِ والتَّضحيةِ والفِداءِ وَالإقدامِ عَلى الشَّهادةِ تَخلِيصًا لِلمسجدِ الأقصَى مِن يَدِ الصَّلِيبيِّينَ، وَلعلَّهُ أيضًا مِن بَابِ

[1]) العقد الفريد، ابن عبد ربه، تح/ إبراهيم الإبياري – أحمد أمين، جـ٦، ص ٥٦٥، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧

المَجازِ المُرسلِ بِعلاقتِهِ الجُزئيَّةِ؛ حيثُ عَبَّر بِجُزءِ الشيءِ وهوَ دمُ القَلبِ، وَأرادَ الكُلَّ، فَليسَ يُعقَلُ أن يَجودَ إنسانٌ حيٌّ بِدَمِ قَلبِهِ مَا لَمَ يَبذل قَبلَهُ دَمَهُ، وَالمُراقُ في الحربِ دَمُ الجَسَدِ كلُّهُ لا دَم القلبِ وَحدَه، ولَو كانَ مبَنَى الكلامِ عَلَى الاستعارةِ فَهي مِن قبيلِ الاستعارةِ المَكنيَةِ، الّتي شَبَّه فيهَا السّارِدُ مَا يُبذلُ للشَّهادَةِ بِمَا يَبذلُه الإنسانُ مِن دَمِ قَلبِهِ، فَحذفَ المُشبَّهَ بِهِ وَأبقَى عَلى لازمِ المُشبَّه([1])، والّذي يَقضِي بِهِ المَقامُ هُنَا أن يَكونَ المَعنَى عَلَى المجازِ المُرسَلِ؛ فَتراتبُ الدَّلالةِ عَلَى المجازِ المُرسَلِ بِعلاقتِهِ الجُزئيَّةِ فِي كَلِمَةِ (المُهَجِ) أشكَلُ بِالمُرادِ مِن الكَلِمَةِ المُفردَةِ وَأولَى مِن حَملِ الدَّلالةِ عَلَى الاستِعارةِ لِقصُورِهَا عَن الأداءِ الوظيفيّ فِي هذا وَنظائِرِهِ مِن المَعانِي.

وفِي مُتابَعةٍ لَطيفَةٍ منهُ استعملَ – لِتداركِ المَعانِي بَعضِهَا عَلَى بعضٍ – صورةً بيانيَّةً أخرَى، كنَّى فيها عَن الأرضَ – مَرَّةً – بالخَضراءِ وَالثَّانيةَ بِالغبرَاءِ، وذلكَ مِن قَولِهِ: "... وَأَن تَكُونَ التَّهَانِي لِأَهلِ الخَضْرَاءِ، أَكثَرَ مِن التَّهَانِي لِأَهلِ الغَبرَاءِ " فَجعلَ التَّهانِي بِهذا الفتحِ العَظيمِ أوقعَ فِي نفوسِ العِبادِ الَّذين تُقِلُّهم الأرضُ المُخضرَّةُ، مِنهَا عَن التَّهانِي الَّتي قدَ تقعُ لِأهلِ الأرضِ المُغبرَّةِ، فَأنتجَ أثرًا رفيعَ القدرِ فِي هذا الصَددِ، حيثُ جلَّى عَن حقيقةِ مَأ يُمكنُ أن يَستشعِرَه المُوقنُ بِنصرِ اللهِ وَفتحِهِ المبينِ عَمَّا يُحسُّ بِهِ غَيرُهُ مِمَّن تَماهَى مَع الأحداثِ طَمعًا فِي دُنيا يُحصّلُ فيهَا مغنَمًا زَائلًا.

- **الصُّوَرُ البَديعِيَّةُ:**

وَنَقفُ هُنا عِندَ بَديعيَّاتِ هذا السَّردِ، وهُوَ مِمَّا أَولَاهُ الخُطباءُ قَديمًا أهميةً كَبيرةً لِشدَّةِ وَقعِهِ فِي نفسِهِ وسُرعةِ تَحصيلِهِ فِي العَّقلِ، أعنِي طَريقةَ التَّسجيعِ،

---

[1]) جواهر البلاغة (المعاني، البيان، والبديع)، ص١١٢، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠١

وَها هوَ ابنُ الزَّكيّ يَعتمدُ عَلَى الفَاصِلَةِ السَّجعيَّةِ فِي مُجمَلِ خِطابِه السَّرديّ فِي هَذِه الخُطبَةِ تَزيينًا لِنصّهِ وَتمكينًا لهُ فِي أذهانِ المُخاطَبِينَ بِهِ، وَفَواصِلُهُ فِي هذا النصّ أكثرُ وَأجلَى مِن أن نَأتِيَ عَلَيهَا جَميعًا فِي مَقامٍ تَحلِيليٍّ ضَيّقٍ كَهذا.

غيرَ أنَّ إيرادَ مَا يُمكنُ الاغتِناءُ بِهِ عَن غَيرِهِ هُنَا كَافٍ فِي التَّدليلِ عَلَى مَذهَبِنَا، ومِن ذلكَ قَولُه: " أَحمَدُهُ عَلَى إظفَارِهِ وَإظهَارِهِ، وَإعزَازِهِ لِأولِيَائِهِ وَنَصرِهِ لِأَنصَارِهِ، وَتَطهِيرِ بَيتِهِ المُقَدَّسِ مِن أَدنَاسِ الشِّركِ وَأَوضَارِهِ، حَمْدَ مَن اسْتَشعَرَ الحَمدَ بَاطِنَ سِرّهِ وَظَاهِرَ جِهَارِهِ "، فَأنتَ تَرَى كَيفَ أنَّهُ وَظَّفَ الفَاصِلَةَ السَّجعيَّةَ القَصيرَةِ([1]) بِمَا لَهَا مِن انعكاسٍ سَرِيعٍ عَلَى نَفسِ مَا تَحلُّ بِنفسِهِ أنغامُهَا المُتوازنةِ الطَّنانة؛ وَصولًا إلَى غَرضِهِ وَتحقيقًا لِمُرادِهِ بِهَا.

وقَد وَظَّف البَديعَ بِصُوَرٍ مُختَلِفَةٍ أناطَ بِكلٍّ مِنهَا غَايةً بِحدِهَا، فَكانَ مِمَّا بَرعَ فِي رَسمِ حَدودِ السَّردِ وَإظهارِ مَعالمِ الحَيويَّةِ فِيهِ الجَناسُ التَّامّ، مِن قَولِه: "لِمَا يَسَّرَهُ اللهُ عَلَى أَيدِيكُم مِنَ اسْترِدَادِ هَذِهِ الضَّالَّةِ، مِنَ الأُمَّةِ الضَّالَّةِ..." حيثُ جَانسَ بينَ لَفظَتَي (الضَّالَّةِ، وَالضَّالَّةِ) مُستَعِيرًا الأولَى مِنهُما لِلشَّاردةِ الَتي يَبحثُ عَنهَا صَاحِبُهَا، والثَّانيةَ لِمَا يُناقضُ الهِدايةِ، ويَعنِي بِهم الصَلِبِيَّينَ، وَقدَ وَافقَ بَينَهُما فِي المَبنَى والمَعنَى، وهوَ مِن أنواعِ الجِناسِ التَّامّ([2]).

---

[1]) يُنظر: إعجاز القرآن، الباقلاني، تح/ لجنة البحوث والدراسات، ص٧٩، مكتبة مصر، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٨٩

[2]) تحرير التحبير فِي صناعةِ الشِّعرِ والنَّثرِ وَإعجازِ القرآنِ، ص١٠٢. مرجعُ سابق

الخَاتمةُ

وَبعدَ تمامِ العملِ على تلك الورقةِ البَحثيةِ، يُمكنُ الآنَ الوقوفُ مِن خلالِهَا عَلَى أهمِّ وَأبرزِ نَتائجِ التَّحليلِ الَّتي تَمَّ الوصولُ إليهَا عَلَى نحوِ مَا يَأتِي بَيانُه:

- قَيامُ العَتباتِ النصيَّةِ فِي خُطبَةِ الفتحِ لِابنِ الزكيِّ بِالدَّورِ الأمثلِ فَي الوصولِ إلَى كُنهِ المُرادِ مِن دَلالاتِ هذا النصِّ، وَتَعزيزِ نَشاطِ الأبنيةِ المتَّصلةِ بعضِهَا بِبَعضٍ.

- إسهامُ الرَّبطِ بينَ العَتباتِ النَّصيَّةِ ومُناسبةِ الخُطبةِ فِي هذا النصِّ فَي دعمِ الدَّلالةِ وَتقويةِ المَعنَى.

- اتِّساقُ العَتباتِ النصيَّةِ –مَعَ مَا تَضمَّنتْهُ تَحتَها مِن أحداثٍ وَأشخاصٍ وَزمنٍ–مَعَ مِعماريَّةِ بِناءِ الخُطبةِ بَوصفِهَا أحدَ أهمِّ الأجناسِ السَّرديَّةِ.

- تَمتُّعُ خُطبةِ القاضِي ابنِ الزِّكيِّ بِمقوّماتِ السَّردِ الخَطابيِّ الفائقِ، مِن حيثُ تَضمُّنُها لكلِّ عَناصرِ البناءِ السَّرديِّ شَديدةِ الارتباطِ بِالعَتباتِ الَّتي قَامت عَليها.

- تضامُّ فَضَاءاتِ السَّردِ الزَّمكانيَّةِ إلَى تِلكَ العَتباتِ المُسهِمَةِ فِي إنتاجِ دَلالةِ النَّصِّ الَخَطَابيِّ.

مَصادر التّوثيق

- الاتساق النصي في التراث العربي، نعيمة سعدية، مجلة كلية الآداب، والعلوم الإنسانية والاجتماعية،، عد/ ٥، ٢٠٠٩

- الإحالة في نحو النصّ، د. أحمد عفيفي، منشورات كتب عربية، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١١

- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تعليق/ محمد رشيد رضا، مكتبة مصر، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٥٢

- إعجاز القرآن، الباقلاني، تح/ لجنة البحوث والدراسات، مكتبة مصر، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٨٩

- الإيضاح في تلخيص المفتاح، القزويني، تح/ عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٢

- البداية والنهاية، أبو الفداء عماد الدين بن كثير، دار الصفا للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١٨

- بنية السرد وجمالية التفاصيل (الحدث، المكان، الشخصية)، أطروحة دكتوراة، كلثوم عماري، جامعة الشهيد حمه لخضر، كلية الآداب واللغات، ٢٠١٩

- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وإعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع، تح/ حنفي محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠١

- التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تح/ محمد رضوان الداية، الفكر المعاصر، دمشق، سوريا، ط١، ١٤١٠ هـ

- جواهر البلاغة (المعاني، البيان، والبديع)، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠١

- الخطابة العربية (مقومات البناء، ودلالات التعبير)، د. جبر منسي، دار مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٩٩

- زمن السرد في روايات (فضيلة الفاروق)، أطروحة دكتوراة، جامعة الحاج لخضر، كلية الآداب واللغات، باتنة، الجزائر، ٢٠١٤

- سيرُ أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تح/ لجنة تحقيق التراث بالدار، دار الرسالة للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٤

- عتبات النص في التراث العربي، والخطاب النقدي المعاصر، د. يوسف الإدريسي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٥

- عتبات، جيرار جينت، تر/ عبد الحق بلعابد، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠٠٨

- العقد الفريد، ابن عبد ربه، تح/ الإبياري، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧

- عودة إلى خطاب الحكاية، جيرار جينت، تر/ محمد معتصم، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠

- القصة القصيرة (نظريًا وتطبيقيًّا)، يوسف الشاروني، كتاب الهلال، القاهرة، مصر، ١٩٨٩

- قواعد الربط وأنظمته في العربية، ونظريات الربط اللغوي الحديثة، د. حسام البهنساوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٨

- اللسانيات واللغة العربية، د. عبد القادر الفاسي الفهري، الكتاب الأول، الرباط، المغرب، ط١، ١٩٨٥

- المتعاليات النصية في الشعر العباسي (البحتري والمتنبي)، وهيبة بهلول، منشورات جامعة العربي بن مهيدي، الجزائر، ط١، ٢٠١٨

- المرجعيات الثقافية في النص الأدبي السردي القديم (مقدمة كليلة ودمنة)، د. نورا محمد عمر، مجلة مجمع الماليزية، عد/ ٣٢، ٢٠٢٠

- المرجعيات الثقافية وبناء المتخيل السردي، د. غرابة نور الهدى، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، عد/ ٢٢، ٢٠٢١

- مُسنَدُ الإمام أحمدَ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، تح/ أحمد محمد شاكر–الزين، جـ٦/ ٤٦٣، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٩٥.

- معجم البلاغة العربية، بدوي طبانة، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧

- النص السردي في ضوء المقاربات النسقية في النقد الجزائري، أ.د خلف الله بن علي، مجلة اللغة الوظيفية، مج/ ٥، عد/ ٢، ٢٠١٧

- النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بو جراند، تر/ تمام حسان، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ١٩٩٨

- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تح/ لجنة تحقيق دار صادر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٩.

محتويات البحث

الملخص : ٥١٩

المُقَدِّمَةُ ٥٢٣

(المبحثُ الأوّلُ) العتباتُ النصيَّةُ في خطبةِ القاضِي ابنِ الزَّكيّ... ٥٢٥

 ماهِيةُ العَتباتِ النصيَّةِ ٥٢٥

 التَّعريفُ بالقَاضِي محي الدِّين ابنِ الزَّكيّ ٥٢٨

- النَّصُّ المَدروسُ (خُطبَةُ الفَتحِ، لِلقَاضِي ابنِ الزكيّ) ٥٣٠

- مَسَاقاتُ النَّصّ الدَّاخِلِيَّةُ، وَالخَارِجِيَّةُ ٥٣٥

ثَانِيًا: الإحَالَاتُ السِّيَاقِيَّةُ فِي النَّصّ ٥٣٩

(المَبحَثُ الثَّانِي)خُطبَةُ ابنِ الزَّكيّ فِي تَحرِيرِ بَيتِ المَقْدِسِ فِي ضَوءِ التَّحلِيلِ البَلَاغِيّ ٥٥١

- الدّلالاتُ المَعنوِيَّةُ، وَأثَرُها البَلَاغيّ ٥٥١

الفَصلُ والوَصلُ: ٥٥١

مُوجِباتُ الفَصلِ، ودواعِي الوصلِ: ٥٥٢

الخَبَرُ والإنشاءُ: ٥٥٣

- الصُّورُ البَيانيّةُ: ٥٥٤

- الصُّوَرُ البَديعِيَّةُ: ٥٥٥

الخَاتمةُ ٥٥٧

مَصادر التّوثيق..... ٥٥٨

محتويات البحث ٥٦١